

الدكتور إبراهيم بيومي مدكور

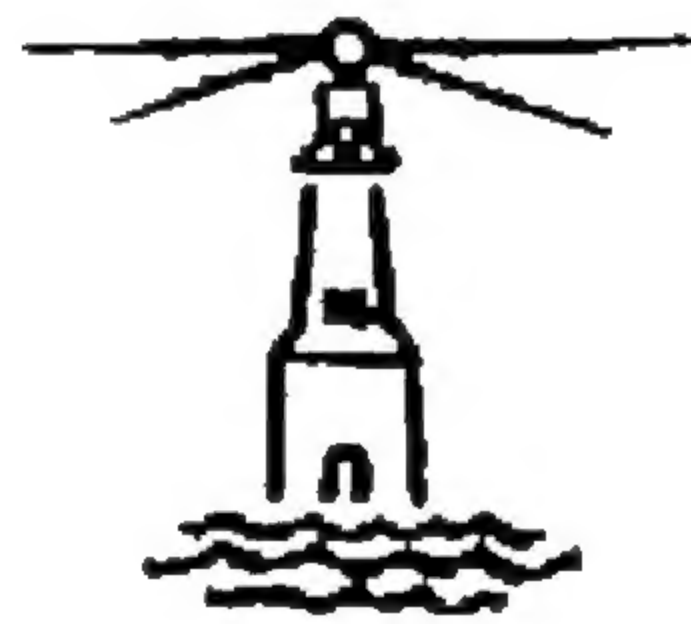
في اللغة والأدب

أقرأ





مجلة تصدر في أول كل شهر
رئيس التحرير: عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

الدكتور إبراهيم مدكور

في اللغة والأدب

اقرأ ٣٣٧
دار المعارف بمصر

اقراء ٣٣٧ - يناير سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.

إيضاح

نعمت بصحبة الخالدين زمناً غير قصير ، فعادوا بي إلى دراسات صرفتني عنها شئون شتى . ووجهوني نحو مشاكل في اللغة والأدب ، عرضت لكل واحدة منها في استقلال وتحت تأثير ظروف خاصة . وقد عاودت النظر فيها أخيراً ، فلمست ما بينها من صلة ، وتبينت أنه تجمعها وحدة ، وأنه يمكن أن يرد قسمها اللغوي إلى أبواب ثلاثة .

فمنها ما يدور حول بعض القضايا اللغوية الكبرى . كتطور اللغة ، والصلة بينها وبين الفكر ، والقياس . والتعريب : والنحو العربي في نشأته وتطوره ، ومنزلة العربية بين اللغات العالمية الكبرى ؛ وهذا هو موضوع الباب الأول .

ومنها ما يعالج لغة العلم بوجه خاص ، فيعرض لخصائصها ومميزاتها ، ولحق العلماء في وضعها وصياغتها ، ويشير إلى شيء من تاريخها ، وما انتهت إليه اليوم في لغتنا العربية ، وقد جمع ذلك كله تحت الباب الثاني .

ومنها أخيراً ما يفصل القول في فن المعجمات ، ويبين تطورها وما وصل إليه المعجم الحديث ، ويقف قليلاً عند لون من التأليف المعجمي لم يلحظ في ترتيبه وتبويبه إلا مجرد نطق الكلمة ، وهو ما سمي المعجم الأيجدي ، وأدرج هذا كله تحت الباب الثالث .

وأما الأدب فلم يحظ إلا بباب واحد ، درست فيه بعض جوانب الشعر والقصة ، وأثيرت مشكلتان كثيراً ما كانتا موضع أخذ ورد ، وهما

مشكلة متن اللغة ، ومشكلة تيسير الكتابة العربية ، وأشير إلى بعض مميزات أدبنا المعاصر .

وإذا كانت هذه الموضوعات قد عولجت منفصلة وفي مراحل زمنية متعددة ، فإن في جمعها ما يزيدنا وضوحاً ويعين على فهمها . ونعتقد أنها لا تزال تشغل الأذهان ، ومن الخير أن تلقى عليها أضواء متلاحقة .

الباب الأول في اللغة

مجمع اللغة العربية والأكاديمية الفرنسية^(١)

الأكاديمية الفرنسية ، منذ قيامها ، نموذج احتذى في بلاد كثيرة ، فلم يكد يمضى عليها خمس وعشرون سنة حتى أخذ الإنجليز في محاكاتها بإنشاء « الجمعية العلمية الملكية » الخالدة . وعلى نحو من هذا أسست الأكاديميتان الألمانية والروسية ، وبعض أكاديميات أخرى أوروبية كالأكاديمية الإسبانية والبلجيكية .

وفي القرن العشرين قامت في العالم العربي مجامع علمية ولغوية في دمشق والقاهرة وبغداد ، وكانت الأكاديمية الفرنسية إلى مدى بعيد نموذجاً لها . وأود أن أقف قليلاً عند واحد منها ، وهو مجمع اللغة العربية ، وسأعرض لشيء من تاريخه وتكوينه ونظام العمل فيه وإنتاجه ، مقارناً ذلك بالأكاديمية الفرنسية .

* * *

وفكرة إنشاء مجمع لغوي بمصر ليست بنت القرن العشرين ، بل تصعد إلى القرن الماضي . فقد لاحظ الأستاذ الإمام (١٨٤٩-١٩٠٥) ، وهو ممن عاشوا في باريس زمناً ، أنا في حاجة إلى مجمع شبيه

(١) مترجم بتصرف مع إضافات عن بحث بالفرنسية ألقى في « السربون

الحديثة » بباريس عام ١٩٦٤ .

بالأكاديمية الفرنسية ، يعنى بتاريخ اللغة ، ويزودها بمصطلحات علمية وحضارية جديدة ويضع فيها معجمات لغوية حديثة - وفي آخريات القرن الماضى اشترك هو نفسه فى « مجمع البكرى » الذى لم يعمر طويلا ، وإن دارت حول مقترحاته مناقشات طويلة فى الصحافة اليومية والشهرية . وفى أوائل هذا القرن بدئت محاولات أخرى ، وعلى رأسها ما اضطلع به لطفى السيد ، وهو من أصدقاء محمد عبده ومن تتفقا ثقافة فرنسية كاملة . فقد دعا مرة أخرى إلى إنشاء مجمع لغوى ، وأنشأ فعلا فى عام ١٩١٦ ما يسمى « مجمع دار الكتب » ، الذى ضم صفوة من شيوخ اللغة وأدبائها ، وكان هو أمينه العام . وقد تابع هذا المجمع نشاطه إلى أن اعترضت ثورة سنة ١٩١٩ سبيله ، فتوقف تماماً ، وأريد له أن يستأنف العمل عام ١٩٢٣ ، ولكنه لم يعقد إلا جلسة واحدة .

ولست فى حاجة أن أشير إلى أن هذه المحاولات كلها قامت على جهود خاصة ، ولم تتدخل الدولة فى الأمر إلا عام ١٩٣٢ ، يوم أن أنشئ مجمع اللغة العربية بصفة رسمية . وكان لطفى السيد أيضاً وراء ذلك ، وهو دون نزاع الأب الحقيقى لمجمع اللغة العربية .

وما أشبه الليلة بالبارحة ، فإن الأكاديمية الفرنسية سبق لها أن سارت فى الطريق نفسه ، فقد بدأت مؤسسة حرة يرعاها فريق من الكتاب والأدباء الذين كانت تجمعهم لقاءات دورية فى بيوت بعضهم ، ولم يعترف بها رسميا إلا بعد مرور ٤٠ سنة على قيامها . فقد شاء ريشليو أن يضع هذه الجماعة الأدبية تحت كنفه ، وأن يباهى بأنه « حامى الأكاديمية الفرنسية » .

إلا أن مجمع اللغة العربية لم يقف فى تكوينه عند الحدود التى رسمتها الأكاديمية الفرنسية ، وحرصت فيها على أن تقصر عضويتها على الفرنسيين .

وبعكس هذا شاء مجمع القاهرة أن يكون مؤسسة عربية لا وطنية ،
وتلك فكرة ذهب إليها من قبل لطفى السيد عند إنشاء « مجمع دار الكتب » .
وكان أعضاء مجمع اللغة العربية في البداية ٢٠ ، نصفهم من المصريين ،
والنصف الآخر عرب ومستعربون ، وتقاسمت تونس ولبنان وسوريا
والعراق فيما بينها الخمسة العرب ، وتقاسمت ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا
الخمسة المستعربين - واختير هؤلاء جميعاً لكفائتهم ورسوخ قلمهم في
علوم الأدب واللغة ، دون اعتبار آخر .

واحتفظ مجمع اللغة العربية بهذا الطابع إلى النهاية . والتزم بتخصيص
مقاعد لغير المصريين إلى حد أنه في عام ١٩٣٩ لم يستطع أن يعقد
اجتماعه السنوى لتعذر وصول الأعضاء الأجانب ، بسبب ظروف
الحرب العالمية الثانية . واضطر على أثر ذلك أن يزيد أعضائه ،
فصاروا ٣٠ منهم ١٠ من غير المصريين . وبقيت هذه النسبة محترمة
في الحملة أو عادت إلى النصف مرة أخرى . ففي سنة ١٩٤٦ ، رفع
عدد الأعضاء إلى ٤٠ ، محاكاة للأكاديمية الفرنسية في الغالب ،
منهم ١٠ غير مصريين ، وفي عام ١٩٥٥ صاروا ١٢ مع بقاء العدد
الكلى كما هو ، وفي عام ١٩٦٠ بلغوا العشرين إلى جانب ٤٠ من
المصريين .

وعلى غرار الأكاديمية الفرنسية حرص مجمع اللغة العربية على
استقلاله الإدارى والمالى ، ونمّاه شيئاً فشيئاً ، فلا يتدخل أحد في ترشيح
أعضائه الجدد ولا في انتخابهم ، وأثر أن يبقى ذلك عملاً مجتمعياً داخلياً .
وهنا يختلف بعض الشيء عن الأكاديمية الفرنسية ، فإن هذه تحت تأثير
ظروف خاصة فرضت على من يريد الانضمام إليها أن يتقدم بطلب
خاص ، ولا بأس من أن يزور الأعضاء ويسعى إليهم . الأمر الذى
ينفر منه أعضاء مجمع اللغة العربية ، ويرغبون في أن يتم الترشيح

والانتخاب في داخل الأسرة وبمحض اختيارها . وإذا ما أحرز المرشح الأغلبية المطلوبة صدر الأمر الملكي أو القرار الجمهوري بتعيينه . ولم تخرج الحكومة على ذلك إلا مرة واحدة عام ١٩٤٢ ، كما حدث في الأكاديمية إبان الثورة الفرنسية .

ولم يكن بمجمع اللغة العربية في البداية إلا هيئة واحدة مكونة من المصريين وغيرهم . وكانت تعقد اجتماعاتها لمدة شهر ونصف كل عام . وفي سنة ١٩٤٠ قسم إلى هيتين : مجلس . ومؤتمر . ويشتمل المجلس على الأعضاء المصريين الذين يعقدون اجتماعاً كل أسبوع على الأقل لمدة ثمانية أشهر في السنة ، من أول أكتوبر إلى آخر مايو . ويشتمل المؤتمر على أعضاء المجمع جميعاً . مصريين وغير مصريين . ولا بد له أن يعقد كل عام دورة على الأقل تتفاوت مدتها بين أسبوعين وستة أسابيع . وعليه أن ينظر فيما أقره المجلس في دور انعقاده السابق . ولا تصبح قرارات المجلس نهائية إلا بعد أن يوافق عليها المؤتمر .

وإلى جانب الأعضاء العاملين ، أخذ مجمع اللغة العربية بنظام الأعضاء المراسلين الذين يغذونه بما يشاءون من بحوث ودراسات ، ولم يحق حضور جلسات المجلس والمؤتمر ، دون الاشتراك في التصويت . وفي المجمع الآن نحو مائة وعشرين عضواً مراسلاً من أطراف الدنيا المختلفة ، بين شرقيين وغربيين ، إفريقيين وآسيويين ، أوروبيين وأمريكيين ، ممن لهم ولوع بالعربية وحرص على خدمتها ؛ وفي هذا ما عزز الطابع العلمي والعالمي للمجمع . وقد أمدّه بعض هؤلاء الأعضاء المراسلين بدراسات لها وزنها ، وفي وسعهم أن يعينوه على معالجة مشاكل اللهجات المحلية والاستعمالات الإقليمية .

ولا يكتفي المجمع بجهود أعضائه ، بل يستعين بالخبراء والمتخصصين في أبواب الثقافة المختلفة ، وهم في الغالب أساتذة جامعيون ، أو فنيون

ممتازون ، وفي قوائمه اليوم منهم ما يزيد على المائة . ويشترك الخبراء في لجان المجمع ومجلسه ومؤتمره . ويشرحون وجهة نظرهم ويدافعون عنها ويؤدون للعلم واللغة خدمات جليلة .

وبعد المجمع جيلاً من الباحثين والمحررين ، ينهجون نهجه ، ويدربون على طرائقه في البحث والدرس ، ومنهم من أشرب بروحه وأصبح جزءاً منه ، وهم عماده الأول وجهازه الثابت . ومن الخطأ أن يظن أن إنتاج المجمع ثمرة جهود أعضائه وحدهم ، بل للخبراء وهيئة التحرير في ذلك نصيب ملحوظ .

وبفضل هذا التعاون الشامل بين المصريين وغير المصريين ، بين الجمعيين وغير الجمعيين ، استطاع مجمع اللغة العربية في خلال مدة قصيرة نسبياً أن يعالج مشكلات شتى في متن اللغة وأصولها ، في نحوها وصرفها ، ولم تفته بعض الصعوبات المدرسية كالإملاء والكتابة العربية . وسنلقى نظرة سريعة على إنتاجه بوجه عام .



ونحن نعلم أنه لم يحدد للأكاديمية الفرنسية يوم تكوينها مهمة واضحة ، واكتفى قرار إنشائها بأن نص على أن هدفها هو : « أن تحفظ على الفرنسية — رشاقتها ، وأن تجعلها قادرة على سد حاجات العلوم والفنون » . وقد اضطار فينلون في خطاب استقباله في أوائل القرن الثامن عشر أن يحدد هذا الهدف ، ويحصره في خمسة أمور : المعجمات ، والنحو ، والخطابة ، والشعر ، والإملاء ، ولكن هذا البرنامج لم يلتزم في دقة .

وبعكس هذا حدد غرض مجمع اللغة العربية منذ نشأته ، وأريد به خاصة أن يحرص على سلامة اللغة وتيسيرها ، وأن يغذيها وينميها بما هي في حاجة إليه من ألفاظ ومصطلحات ، وأن ينهض بالمعجم العربي ويجعله ملائماً لفن المعجمات الحديث . ولم تلبث هذه الأهداف أن

اتضح أمامه ، وأخذ يعدلها ويرسم مناهج تحقيقها ووسائل الوصول إليها ، وأصبحت له في ذلك تقاليد واضحة .

والعربية ماض طويل يعرفه المجمع ويقدره : ولكنه يؤمن بأنها لغة حية تتغير وتتبدل كسائر الظواهر الاجتماعية ، وقد مرت بها تطورات مختلفة على مر الزمن ، ولم يبق محل للقول بأنها استقرت عند أوضاع لا تقبل التغيير والتبديل . فهناك استعمالات قديمة وأخرى حديثة ، وأساليب جاهلية أو عباسية وأخرى عصرية ، وفصحى الأمس تختلف عن فصحي اليوم . ومن حقنا أن نقيس ونشتق كما قاس الأقدمون واشتقوا ، بل من حقنا أن نعرب ونضيف إلى لغتنا ألفاظاً أخذت من لغات أخرى .

وعلى هذا سار مجمع اللغة العربية منذ خمس وثلاثين سنة ، وتوسعة لمن اللغة وتيسيراً للقياس والاشتقاق وضع طائفة من القواعد أفادتها الباحثون والدارسون . وقد أخرجت عام ١٩٦٣ تحت عنوان : « مجموعة القرارات العلمية » ، ولم يبق من طبعها الأولى شيء يذكر . وأضاف إليها في العام الماضي (١٩٦٩) مجموعة أخرى تحت عنوان : « في أصول اللغة » ، وهي تسير على نهج المجموعة الأولى في التجديد والتيسير ، وأصبحنا لانشك اليوم في أننا نملك اللغة ، وليست هي التي تملكنا ، وفي وسعنا أن نستخلصها كما نريد ، ما دمنا لانخرج عن أصولها ومبادئها .

وقد عني المجمع بالمصطلح العلمي عناية خاصة ، « والعلم لغة أحكم وضعها » . وللعلوم الإسلامية مصطلحات قديمة احتفظ ببعضها وأهمل كثير منها ، ثم جاء العلم الحديث بكشوف وحقائق جديدة لا بد لها من قوالب لفظية تؤديها . وفي أوائل القرن الماضي قامت في مصر حركة علمية تلكأت في السير قليلاً ، ثم ما لبثت أن نشطت ، وزاد نشاطها في القرن الحاضر ، ومست الحاجة إلى وضع مصطلحات علمية وحضارية جديدة ، وربما كان هذا من أهم الأسباب التي دفعت إلى التفكير في إنشاء مجمع لغوي .

وقد شغل مجمع اللغة العربية فعلاً منذ نشأته بالمصطلح العلمي كثيراً ، ووقف عليه معظم جلساته : واستطاع أن يقر منه عشرات الآلاف في شتى العلوم والفنون وأخرجها في مجموعات خاصة تعد نواة للمعجمات العلمية . وقد بدأ في إخراج بعض هذه المعجمات ، ويأمل أن يتوسع فيها . ونستطيع أن نقرر أنه أضحى اليوم أكبر مؤسسة تعنى بالمصطلح العلمي والحضاري في العالم العربي . ويحرص دائماً على أن يقابل المصطلح العربي بنظيره في الفرنسية أو الإنجليزية أو فيهما معاً . وربما كان بعض المصطلحات العربية أدق في معناه من اللفظ الأجنبي . وهنا يختلف مجمع اللغة العربية عن الأكاديمية الفرنسية التي وكلت أمر المصطلح العلمي لسواها ، ولم تقبله في معجمها إلا في طبعته الرابعة ، بعد مرور مائة عام على نشره .

وفي العربية معجمات لغوية كثيرة . ولعلها في هذا من أغنى اللغات ، ولم يخل عصر من عصورها من ظهور معجم لغوي جديد . وإذا كنا لم نقف عليها جميعها ، فقد وصل إلينا منها قدر لا نزال نرجع إليه ونعول عليه ، ومنه ما ترجم إلى بعض اللغات الأوروبية . وفي هذه المعجمات القديمة مادة غزيرة ، ومعلومات متنوعة ، وثروة لغوية قيمة . ولكنها في مادتها مقصورة على أساليب الجاهلية وصدر الإسلام ، ولا تسلم بما استحدثته العصور التالية من تراكيب واستعمالات . ومنهجها لا يتفق مع فن التأليف المعجمي الحديث ، فتبويبها معقد ، وتعريفاتها غامضة أو خاطئة .

وقد تنبه المجمع إلى نواحي النقص هذه ، وأخذ يعد لإخراج معاجم حديثة تقوم على أساس من المنهج التاريخي على نحو « معجم أكسفورد » في الإنجليزية ، واعتداد بالجانب الموسوعي « كمعجم لاروس » في الفرنسية . وشاءت المصادفات أن يكون بين أعضاء المجمع لغوي ألماني كبير هو الدكتور فيشر وقف خمسين سنة من حياته على المعجم العربي ، أعد مادة للمعجم

تاريخي تعاقب مع المجمع على إخراجهم . ووقفت الحرب العالمية الثانية مع الأسف في سبيل ظهوره . فلم ير المجمع بدا من أن يضع بنفسه «معجمه الكبير» ، وقضى زمناً غير قصير في تحديد أهدافه ورسم منهجه وجمع مادته ، وهما هو ذا يخرج الآن سنة ١٩٧٠ الجزء الأول منه ، ويأمل أن تليه تبعاً الأجزاء الأخرى .

وقد أخرج عام ١٩٦٠ «معجمه الوسيط» : وهو خطوة هامة في سبيل التأليف المعجمي ، يسجل الفصح : ويضم إليه المحدث والمولد ، ويأخذ بالترتيب المتجاني في التقسيم والتبويب . فسد حاجة : وأقبل عليه الباحثون والدارسون ، ولم تلبث طبعته الأولى أن نفدت . والمجمع الآن بصدد إخراج الطبعة الثانية ، بعد أن أدخل عليها ما أدخل من تهذيب وتنقيح . وما أشبه ببعض المعاجم الحديثة ، كمعجم «لاروس الصغير» .

• • •

وهنا أيضاً نجد مجمع اللغة العربية ابن القرن العشرين ، ينتج أكثر مما أنتجت أكاديمية القرن السابع عشر ، وينزل عند حاجات العصر ومقتضياته . فيلتزم في معجماته تبويباً أيسر ، وتعريفات أوضح . ويأخذ بقدر من المصطلحات العلمية ، ويشرحها شرحاً دقيقاً فنياً . وقد ترددت الأكاديمية الفرنسية طويلاً في أن تثبت في معجمها الوحيد المصطلحات العلمية ، برغم نموها وتجددها ، ورفضت حتى الآن أن تفسح للأعلام مكاناً . أما المولد والمحدث فقد أنكرته إنكاراً باتاً طوال قرنين كاملين ، ولم تأخذ به إلا في القرن العشرين ، وبتحفظ تام .

الفكر واللغة

اللغة ابتكار من أبداع ما وصل إليه الإنسان : وأداة تمتاز بكثير من الدقة والإتقان ، ووسيلة ناجعة من وسائل الاتصال والتفاهم بين الأفراد والجماعات . وهي ظاهرة متشعبة النواحي ، أثارت ألواناً شتى من البحث والدراسة . وإذا تركنا جانباً ما يتصل بها من دراسات أدبية ونحوية وصرفية ، فإنها وجهت إلى بحوث أخرى متعددة .

فعرض لها علماء وظائف الأعضاء ليعرفوا كيف تؤدي : ويبينوا أعضاء النطق والصوت ورسموا في اختصار الجهاز العضوي للغة . وعالجها علماء النفس لما رأوا من صلة وثيقة بين العمل الذهني والدلالات اللغوية ، وعنى بها علماء الاجتماع مبينين نشأتها وتطورها ، ومقارنين بين اللغات البدائية واللغات المتحضرة ، ومعلنين أن اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعية من عوامل ومؤثرات . ونظر إلى اللغة أخيراً على أنها جزء من التاريخ يسجل الماضي ويحكي الأحداث ، بل هي نفسها قطعة تاريخية متحركة يجب درسها وبحث معالمها .

ودون أن نعرض لهذه النواحي المختلفة ، نود فقط أن نوجه النظر إلى ما بين الفكر واللغة من صلة ، وفي هذه الصلة ما يلقي كثيراً من الضوء على مناقشاتنا ، وبخاصة ما يتصل منها بالمصطلحات ووضعها ، والمترادفات وقيمتها ، وألفاظ الحضارة وتجدها ، والتعبيرات المبتكرة ومدى الحاجة إليها ولاشك أن المعنى وثيق الصلة باللفظ الذي يؤديه ، لأنه ثوبه ووعاؤه ، وبدونه يفضل ويصبح كأن لاوجود له ، فلا يمكن تبادله بين الأفراد ،

ولا استحضاره في ذهن الفرد الواحد ، وقد يما قالوا : « التفكير حديث نفسي » ، ومن هنا ارتبط التفكير باللغة ، وبالأخص في صورة السامية كالحكم والاستدلال .



وإذا تأملنا الفكر واللغة وجدنا أن كل واحد منهما يؤثر في الآخر ويتأثر به . فاللغة في نشأتها تخضع إلى مدى بعيد للنشاط الذهني والميول والاتجاهات النفسية . وما لغة الأطفال إلا حركات وإشارات تبعث عليها غرائز واستعدادات ، فيدفع الطفل يده إلى الأمام مشيراً إلى التقدم ، أو إلى الخلف مشيراً إلى التراجع ، وكل تلك حركات تعبر عن انفعالات داخلية . ولاتلبث هذه الحركات أن تتحول إلى إشارات ، والإشارات إلى أصوات ، والأصوات إلى ألفاظ وجمل . وهكذا تنشأ اللغة في تدرجها الطبيعي ، وتقوم على أساس سيكولوجي .

لم يؤثر الفكر في نشأة اللغة فحسب ، بل أسهم أيضاً بنصيب ملحوظ في حفظها والإبقاء عليها ، لأن تعلم اللغة بين أبناء الجيل الواحد يعتمد على السماع والحفظ ، وتبادلها بين الأجيال المتلاحقة لا ميسل إليه إلا بالنقل والرواية . ودعامة ذلك كله الذاكرة والحافظة « ولولا الذاكرة ما كانت لغة » كما يقولون . وقد يكون في الكتابة ما يرفع عن كاهلنا اليوم بعض عبء الاحتفاظ باللغة ، ولكن كم من جماعات لها لغات تداولتها وتوارثتها دون أن يكون للكتابة فيها أثر ملحوظ ، وإنما عولت على الذاكرة وحدها . وكلنا يعلم أن قوة التذكر أوضح في حياة البداوة منها في حياة الحضر ، لأن المتحضرين في اعتمادهم على القلم والقرطاس يضعفون ذاكرتهم ويقللون استخدامهما ، على أن الكتابة نفسها لا يمكن أن تتعلم وتكتسب إلا بقسط ضروري من الحفظ والتذكر .

وللحياة الفكرية أثر آخر في نهضة اللغة ونموها ، إذ لولا تجدد المعاني وتباينها ما تجددت الألفاظ ولا تنوعت التراكيب . ولولا عمق الفكرة وتجدها ما كانت دقة اللفظ وتخيره ، وكم يشعر المتكلم أو الكاتب أن اللفظ أو التعبير الذي استعمله لا يؤدي تماماً المعنى الذي يريد ، فيحاول البحث عن غيره ليكون أكثر ملاءمة . وثروة اللغات تتفاوت فيما بينها تبعاً لنشاط الحياة الفكرية وتقدم العلوم والفنون . ولسنا في حاجة أن نشير إلى أن عصر ازدهار اليونانية قد اقترن بتلك النهضة الفلسفية والفنية التي عرفتها أثينا في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد . وقد لوحظ أيضاً أن أسماء الذوات تغلب أسماء المعاني في اللغات البدائية ، لأن البدائيين لا يلجئون كثيراً إلى التعميم والتجريد . وتساهم فكرة الزمن بنصيب أوضح في لغة المتحضرين منه في لغة الشعوب الهمجية . وتبادل العلوم والفنون بين الأمم لا يقتصر على تبادل الأفكار بل يصاحبه أيضاً تبادل بعض الألفاظ والأساليب الدالة عليها ، وكثيراً ما كشفت هذه عن أصل تلك .



وللغة بدورها أثر قوى في التفكير ، فهي إلى مدى بعيد مادته ودعامته ، ذلك لأن الدال والمدلول متلازمان ، وقل أن يستحضر أحدهما في الذهن بدون الآخر . وقد سبق لأرسطو أن قال تلك الجملة المشهورة التي قدر لها أن تحيا مع الزمن ، وهي : « ليس ثمة تفكير بدون صور ذهنية » ، وفي مقدمة هذه الصور تجيء الرموز اللغوية . ولم يحاول أحد نقض هذه القضية إلا في القرن التاسع عشر ، يوم أن جاءت مدرسة فورتسبورج ، وذهبت إلى أن هناك ضرباً من التفكير مجرداً من تلك الصور الذهنية كتفكير الأطفال الذي تمليه طائفة من الميول والغرائز ، أو كتلك اللمحات والحواطر التي تمر بالذهن عابرة وكأنها معنى مجرد من كل كساء . ودون أن نقف طويلاً إزاء هذين الرأيين المتقابلين ، نود أن نلاحظ أن الحدس ليس إلا ضرباً من التفكير ، وهناك ضروب أخرى ذات حلقات

لا يمكن ربط بعضها ببعض إلا بواسطة الرموز اللغوية . على أن الحدس نفسه قد يستصحب لفظاً أو ألفاظاً ، ولذا قالوا إن المرء يفكر في كلامه قبل أن يتكلم عن تفكيره . فالتفكير السامى أو التفكير المنطقى الذى هو سلسلة من الحكم والاستدلال لاغنى له عن اللفظ والعبارة .

والألفاظ فوق هذا هى الوسيلة لتحديد الأفكار وتمييز بعضها من بعض ، وإذا كانت المدلولات متنوعة ، فمن اللازم أن تتنوع الدوال تبعاً لها . ولا شك في أن الأفكار متفاوتة معنى ومدلولاً ، عموماً وخصوصاً ، جنساً ونوعاً . ولولا الألفاظ ما أمكن تقسيمها وتصنيفها ، ولا تحليلها وتركيبها . وآية الفكر الدقيق تعبير دقيق يؤديه ، والعبارة المحكمة تؤدي عادة إلى تفكير محكم . وبذا تنوعت العلوم ، وتحدت موضوعاتها ، وامتاز كل منها بمصطلحاته . وما العلم إلا لغة أحكم وضعها .

واللغة أخيراً سبيل تداول الأفكار وتبادلها ، فهى التى تنقلها من فرد إلى فرد . ومن جماعة إلى جماعة ، وإلا بقيت وقفاً على أصحابها ومحبوسة في صدورهم . وإذا كان التفكير الفردى يخضع للمجتمع ويتأثر به ، فإن اللغة دخلت كثيراً في هذا الخضوع والتأثير . ومن أهم مزايا اللغة قدرتها على أداء المعانى وتيسير تبادلها ، وفضل لغة على أخرى يرجع في قسط كبير إلى اتساع تداولها وكثرة المتخاطبين بها .

* * *

في وسعنا أن نقرر إذن أنه إذا كانت اللغة ثمرة للتفكير ، فإنها هى أيضاً شرط أساسى لوجوده وتحقيقه على وجه كامل . هذه هى صلة الفكر باللغة ، وهى فيما يبدو صلة تفاعل وتلازم ، وقد ترتبت عليها آثار متعددة ، يعيننا أن نشير إلى اثنين منها فقط . أولهما أنه يمكن أن تدرس الحياة العقلية في ضوء الحياة اللغوية . فثلاً ضعف النطق أو بطؤه يؤذن بضعف ذهنى ، والأطفال لا يعبرون عن أحكامهم عادة بجملته وإنما

يكتفون بكلمة أو بعض كلمة . ومن هنا نشأ علم النفس اللغوي الذي يرى إلى تفسير بعض الظواهر النفسية في ضوء الدراسات اللغوية ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما حاوله « دى شوسير » بالنسبة للغة الكبار ، و « بياجييه » بالنسبة للغة الأطفال ، و « لينى بريل » بالنسبة للجماعات البدائية . وإذا كانت الدراسات السيكلوجية قد أفادت كثيراً في الخمسين سنة الأخيرة من تقدم البيولوجيا والفسيولوجيا والباثولوجيا ، فإنها استمدت أيضاً في هذه الفترة مادة لا بأس بها من الدراسات اللغوية .

* * *

وفي تاريخ الأدب ظواهر لها دلالتها السيكلوجية ، فيلاحظ أن ازدهار الآداب يقترن دائماً بازدهار العلم والحياة العقلية ، وأنه حين يعتدى على الحرية الفكرية ويعم الظلم والطغيان يسود الغموض والرمز في الألفاظ والأساليب ، ولتلك الحرية الفكرية التي نعم بها الأثينيون القدامى شأن في وضوح لغتهم وصفاتها . وإذا كانت المترادفات تعد ثروة لغوية في بعض العصور ، فإنها في عصور أخرى تعتبر سرفاً لاداعي له ولا عمل . [٣] ومن جهة أخرى شغلت علاقة الفكر باللغة المنطقة منذ أن وضع علم المنطق إلى اليوم . ونحن نعرف أن منطق أرسطو نبت في جو البيان والجدل السفسطائي ، وكان ذا صلة بالنحو اليوناني ، بل العربي . ولأمر ما تطلق كلمة « لوجوس » اليونانية على العقل واللغة على السواء . وقد درج المنطقة منذ أرسطو على أن يعدوا دراسة الألفاظ والقضايا مقدمة ضرورية لدراسة البرهنة والاستدلال . ولم يقنع المنطقة المحدثون بهذا ، بل شاعوا أن يمحسروا المعاني كلها ويجمعوا « ألف باء » الفكر الإنساني ، ويضعوا لكل معنى رمزاً خاصاً به ، وبدا تتكون « اللغة العلمية العالمية » .

قال بـنـلـك « لـيـبـتـر » فتنبأ بالمنطق الرياضي ، وسبق عصره بنحو

قرنين ، وأثار لأول مرة فكرة اللغة العالمية . ولاغربة ، فقد كانت اللاتينية لغة العلم والعلماء لعهدده ، هذا إلى أنه كان عالمي النزعة ، إن في العلم أو في السياسة . وفي هذه اللغة المنشودة ما يقرب المسافة بين بني الإنسان ، وما يحول دون أخطاء كثيرة ، لأن الخطأ في الحكم والاستدلال كثيراً ما ينشأ عن خلاف لفظي أو غموض في التعبير . ويوم أن يتوافر لكل معنى رمز خاص به ، نستطيع أن نقول : لنحسب ، بدل أن نقول : لنبرهن .

وقد عادت فكرة اللغة العالمية إلى الظهور مرة أخرى قوية متحفزة في أول هذا القرن . وكان من أكبر أنصارها رياضي فيلسوف فرنسي بارع انتزع فجأة في الحرب العالمية الأولى ، وهو « كوتورا » الذي كان يرمي إلى تهذيب « الإسبرنتو » وتكوين « الإيدو » ، تلك اللغة الدولية التي تفرض نفسها على جميع العقول وجميع الشعوب ، وقد وضع في ذلك معجماً خاصاً ، أخذ عنه كثيراً « لالاند » في معجمه الفلسفي المشهور .

والرياضة أقل العلوم حاجة إلى الألفاظ والتراكيب لأنها أبعد ما مدى في العموم والتجريد . . فإذا ما حصرت حقائقها ، واختير لكل حقيقة رمز معين أمكن تكوين لغة رياضية كاملة ، وعلى غرار هذه اللغة الرياضية يمكن وضع اللغة العالمية . وقد كان « كوتورا » فوق تخصصه في المنطق والرياضة ، ملماً بأطراف الدراسات اللغوية المقارنة ، فأخذ يبحث عن أصول عامة يمكن أن تتخذ أساساً للغة الدولية ، وحاول فعلاً أن يكون هذه اللغة ويعد لها نحوها الخاص .

ولم تلبث محاولته هذه أن أثارت ثائرة علماء الاجتماع الفرنسيين ، وعلى رأسهم « دركايم » . فلم يرتضوا ذلك المنطق الإنساني الذي يقود إلى لغة عالمية ، وقرروا أن هناك أمراً لغوية بقدر ما هنالك من مجتمعات إنسانية . وسواء أصححت الأسس التي بنى عليها « كوتورا » مقترحه أم لم تصح ، فإن

فكرة اللغة الدولية ازدادت في ربع القرن الأخير قوة ووضوحاً . ولعل في سرعة الاتصال العالمي اليوم ما ييسر سبلها . ويتيح لها الفرصة لتخرج من دائرة الرغبة والأمل إلى عالم الحقيقة والوجود .

* * *

في هذا العرض السريع ما يلقي بعض الضوء على العمل المجمعي ، ومنه نستخلص دروساً نافعة : وفي مقدمتها أن الأصل في المصطلح العلمي أن يؤدي بلفظ واحد كى يتوافر لكل معنى رمزه اللغوي الخاص به . فلتتجاش إذن الدوال المتعددة للمدلول الواحد . لأنها تكرار لاداعي إليه وربما أدى إلى شيء من اللبس . والمصطلح المجمع عليه — وإن لم يؤد المعنى المراد تماماً — سينتهى بأن يستقر ويستحضر مدلوله كلما ذكر .

ونحن أحرص ما نكون على أن تؤدي المعنى العلمي الجديد بلفظ عربي ، فإن تعذر ذلك فلا خير من التعريب ، لاسيما إذا كانت الكلمة المعربة ذات صبغة عالمية ، وهذا هو المنحى العلمي في مختلف اللغات . ومن ذا الذى يذكر مذهب « ليبنتز » مثلاً ولا يذكر معه كلمة « مناد » Monad ! إنا نراها في اللغات الأوروبية على اختلافها دون تغيير أو تبديل .

وما يقال عن الألفاظ يمكن أن يقال عن الأساليب ، فإذا كانت المعاني المفردة في تجدد فإن المعاني المركبة التى تعتمد على الرابطة والإسناد تتجدد أيضاً ، وإذا كنا نحس بحاجة إلى ألفاظ جديدة ، فإننا في حاجة أيضاً إلى أساليب جديدة . وقد تصادف هذه الأساليب من الرفض والمعارضة ما تصادفه الألفاظ المبتكرة ، فتستنكر حيناً وترد حيناً آخر . بيد أننا إذا كنا في حل من ابتكار اللفظة فلا غضاضة علينا في ابتكار

الأسلوب ما دام يلتقى مع الأوضاع العربية . والفكر — فى خلقه وابتكاره ،
فى حركته وتنوعه — يتطلب دون انقطاع من الألفاظ والأساليب ما يؤدى
المعاني المختلفة والمتنوعة .

وأخيراً إنا نعيش فى عصر من أخص خصائصه محاولة الاقتصاد فى
المجهود الجسمى والذهنى ، وذلك لتزاحم الأعمال وضيق الوقت ، وكلنا يدرك
أن يتتج أكبر قدر ممكن فى أقصر وقت ممكن . وأنفع الحقائق ما يمكن
توصيله عن أيسر السبل وأقربها — وإذا كان العلم قد اتسع صدره قديماً
للدراست الطويلة والمجلدات الضخمة فإنه يعنى اليوم بإحكام المعنى
والمبنى . وإذا كان الأدب يباهى فيما مضى بالسجع والترادف والمحسنات
اللفظية ، فإنه أضحى اليوم يحرص الحرص كله على السهولة والبساطة والدقة
والوضوح .

هذه هى روح العصر ، وتلك هى مقتضياته . ولا سبيل للخروج
عليها .

اللغة المثالية

لئن كان لعلم اللغات المقارن قوانين ، إن من أعمها وأصدقها أن اللغات جميعها تخضع لقانون السير والحركة والتغير والتحول ، شأنها في ذلك شأن كل كائن حي ، فمن إعداد ونشأة ، إلى تشخص وتكوين ، ثم إلى كمال ونضج . وقد يدور بها الزمن دورة معاكسة ، فتضائل وتراجع ، وتضمير وتنكمش ، وتتفرق وتتشتب . فهل لها في هذا السير أغراض تصوب إليها ومثل عليا تنشدها ؟ أو الأمر مجرد حركة عمياء لا هدف لها ولا غاية ؟

أما أن اللغات متحركة ومتغيرة فهذا ما لا يعز إثباته ، ذلك لأن طبيعتها تقتضى الحركة والتغير ، والواقع يؤيدهما . ولقد اختلف الباحثون في طبيعة اللغة ، ففريق عدها ظاهرة نفسية خالصة ، وآخرون رأوها مجرد ظاهرة اجتماعية ، ولعلنا نكون أقرب إلى الصواب إن قلنا : « إنها تعبير عن انفعالات ووجدانات وأفكار وآراء بواسطة دوال وأصوات أقرها المجتمع وأخذ بها » . فالوجدان والفكر نصيب في حياة اللغة إلى جانب نصيب البيئة والمجتمع .

ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر ما للانفعالات من أثر في نشأة اللغة بل في نموها وكماها أيضاً ؟ فلغة الأطفال — أو اللغة الطبيعية — تكاد تكون مجموعة انفعالات متلاحقة تعبر عنها إشارات وحركات خاصة ، وهناك شعوب وقبائل بدائية لا يستطيع أن تفاهم ليلاً إلا إذا أشعلت النار ، كمن تظهر إشارات الأيدي وحركاتها . ولا تزال حتى اليوم تستعين ، لإبراز

معنى أو توضيح شعور ، بحركة اليد ونبرة الصوت ، وكم أملت العواطف والوجدانات على كبار الكتاب والشعراء صوراً ساحرة وتشبيهات بديعة .

والتفكير ينتهى دائماً إلى لغة ، بل لاسبيل إلى المنطقى والسامى منه بلونها ، وقد يما قال أفلاطون جملة بقيت خالدة ، هى أن « التفكير كلام نفسى » . ولعل هذا يلتقى مع ما جاء على لسان شاعرنا العربى :

إن الكلام لى القود وإنما جعل اللسان على القواد دليلاً

وإذا كان علماء اللغة لم يأبهوا كثيراً للصلة بين الفكر واللغة ، فقد تنبه لها الفلاسفة وعلماء النفس ، وشاعوا أن يجعلوا من الفكر لغة ومن اللغة فكراً . لهذا لم يكن غريباً أن تعرف « اللغة العالمية » لدى الفلاسفة والمناطق قبل أن تعرف لدى اللغويين . من ليبتز إلى كوتورا هناك مجهود متصل يرمى إلى حصر الأفكار الإنسانية وتحديد الألفاظ الدالة عليها ، بحيث نستطيع أن نخلق من ذلك لغة عالمية ليست « الإمبرنتو » إلا صدى لها .

وإذا كانت الوجدانات والعواطف والأفكار والآراء هى المدلولات ، فلا بد لها من دوال تبرزها وتعبّر عنها . وإذا ما جاوزت هذه الدوال الحركات الفطرية استلزمت عرفاً واتفاقاً لقيمة له إلا أن أقره المجتمع ورضى به . على أنه لابد للحركات نفسها من اصطلاح وتفاهم مشترك ، وإلا أصبحت مقصورة على صاحبها ولا مدلول لها ، فكيف بنا إذا انتقلنا إلى الأصوات والعبارات . ومن هنا كانت اللغة ظاهرة اجتماعية ونظاماً عاماً يخضع له الأفراد وإن حاولوا تغييره وتبديله ، وتبقى محاولاتهم جزئية وفردية إلى أن يقرها المجتمع ويمنحها تقوذه وسلطانه ، فلا وجود للغة بمعزل عن مجتمع يتكلم بها ويتفاهم فى ضوئها .

هذه هى عناصر اللغة : وجدان وعاطفة ، وفكر ورأى ، وبيئة ومجتمع ،

أو إن شئت : ومدلولات ودوال . وكلها بلاشك متغيرة ومتحولة ، فالوجدانات
والعواطف في نشوء وارتقاء لدى الأفراد والجماعات . وكم من عواطف
إنسانية كحب الغير واحترامه لا تكاد تعرف لدى بعض القبائل الهمجية ،
واليونان الذين خلفوا على الدهر فلسفة خالدة كانوا يعدون كل من وراء
أثينا برابرة .

والأفكار تنمو بنمو العلم والدراسة ، وتعمق بطول البحث والتأمل ،
وتتجدد بتجدد الكشف والاختراع ، وفي ذلك نمو اللغة وتقدمها . وقد
أثبت الرحالة وعلماء الشعوب أن هناك قبائل لا تعرف الكلبيات والمعاني
العامة ، وكل مالديها من ألفاظ إنما يدل على المحسات والخزئيات ،
في حين أن التفكير الراقى إنما يعنى بالمبادئ والقضايا الكلية .

والحياة الجمعية في تبدل وتغير ، فمن همجية إلى آخذة في التحضر ،
ومن نصف متحضرة إلى ممعنة في الحضارة والمدنية ، وكلما اكتملت
حضارة أمة تعددت مرافقها وتنوعت اتجاهات حاجاتها ، وأضحى لزماً
أن تسايرها في كل ذلك لغتها ، فيتسع متنها وتزيد مفرداتها بالوضع أو
الاشتقاق أو الاقتباس ، وتسمو أساليبها وتباين فنون القول فيها ، فاللغة تهللك
في المجتمع وتتغذى منه .

* * *

وليس بعزيز علينا أيضاً أن نلاحظ حركة اللغات وتطورها في ضوء
الواقع والتاريخ ، فالإغريقية التي تعد من أجمل اللغات الإنسانية بدأت
أول ما بدأت في صورة لهجات عدة ورطانات متباينة ، تلاقت بحكم الحوار
والاختلاط ، وتنافست فيما بينها واحتك بعضها ببعض ، ووقعت في صراع
عنيف تولدت عنه اللغة الإغريقية الحققة الغزيرة المادة ، الواضحة المنطق ،
السهلة التركيب . وقد بلغت هذه اللغة قممها في القرنين السادس والخامس
قبل الميلاد في العصر الذهبي للأدب اليوناني ، عصر تراجيديا سوفوكل

وكوميديا أرسطوفان وفلسفة أفلاطون وأرسطو . ثم أخذت تضعف وتتضاءل إلى أن دهمتها اللاتينية وطغت عليها ، وانمحت تقريباً في ظلمات القرون الوسطى . وهاهى ذى تستعيد حياة أخرى تختلف دون نزاع عن حياتها القديمة ، وتظهر في ثوب الإغريقية الحديثة التى يعالجها اليونانيون اليوم .

ولفتنا العربية لم تصل إلى ما وصلت إليه في عصر المملكات ، من غزل امرئ القيس ، وحماسة مهلهل ، وفخر ابن كلثوم ، إلا بعد أن مرت بأدوار ومراحل إعداد وتكوين طويل ، ثم جاء الإسلام فهدب حواشيه ورقق عباراتها وصقل ألفاظها ، واستمرت تنمو وتغزر لفظاً ومعنى في عهد الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية . ولكن الزمن يهدم ما بنى ، فدخلها الغريب والفساد ، وأخذت تركد ركود المتخاطبين بها ، وما إن حل النصف الأخير من القرن الماضى حتى عادت تنشط وتهض ، وتسلك سبل الحياة في حماسة وقوة .

والفرنسية لغة الوضوح والدقة ليست في أصلها إلا ضرباً من اللاتينية الدارجة ، اختلط بعناصر جرمانية ، وتأثر بيئة وظروف خاصة ، ثم أخذ ينشأ ويتكون على مر الزمن ، وقد قضى العشرة القرون الأولى للميلاد في مرحلة هذه النشأة . وكان لابد أن نتظر إلى القرن الحادى عشر لنرى الفرنسية القديمة في صفاتها وخصائصها ، وكأنما تنمو بنمو الأمة الفرنسية نفسها واتساع مجدها . وقد وصلت إلى قمته في القرنين السابع عشر والثامن عشر حين ظهر كبار الفلاسفة والكتاب والشعراء ، أمثال ديكارت ، وراسين ، وروسو ، وفولتير . وفي القرن التاسع عشر ظهرت فيها ألوان جديدة من النظم والنثر ، ومذاهب مستحدثة في الأدب كالمنهج الرومانطيق والمذهب الرمزي ، وهاهى ذى تسير في طريقها إلى اليوم بين تنوع وتجدد ، وتحول وتغير .

الآن - وقد وضحت أمامنا حركة اللغات في قوتها وضعفها ، في سرعتها وبطئها - يحق لنا أن نتساءل : إلام ترمى هذه الحركة ؟ وهل لها غايات تهدف إليها ومثل عليها تريد تحقيقها ؟ وإن كانت فما هي ؟ .

يظهر أن المذهب المثالي قد وجد سبيله إلى العلوم الإنسانية على اختلافها ، فلا أخلاق مثلها كما أن للفنون والآداب مثلاً من نوعها . وأخذ الباحثون في هذه النواحي يقابلون ما هو كائن بما ينبغي أن يكون . وليتهم رسموا مثلهم العليا في ضوء الواقع والواقع وحده ، إذن لبدت عملية يسيرة المنال . ولكنهم أبوا إلا أن يرسلوا فيها خيالهم ويمعنوا تفكيرهم فأخذ الناس يتعشقونها ، ولكن هيات أن يصلوا إليها . وإذا كان أفلاطون قد بذر بذور المثالية في التاريخ القديم ، فإن كانط غذاها ونماها في التاريخ الحديث .

ولم هذه المثالية شأنها لدى علماء اللغات ، فقد كان معظمهم يعتقد حتى خمسين سنة مضت أن لكل لغة مثلاً أعلى تصل إليه أوتقاربها يوماً ما ، وهذا المثل وحده هو الذي يجب أن يحاكي ويحتذى ، بل هو اللغة بمعناها الكامل . وهو في الغالب وقف على اللغات القديمة ، أو إن شئت بعبارة أدق على عصور سبقتنا . وللقديم دائماً حرمة وقداسته ، فليس ثمة إغريقية إلا تلك التي جرت على لسان أفلاطون وأرسطوفان ، ولا عربية إلا تلك التي عرفت في الجاهلية والإسلام إلى صدر الدولة العباسية ، ولا فرنسية إلا تلك التي دونتها مؤلفات القرن السابع عشر والثامن عشر . وإذا لم يراع المصري اليوم - وفي القرن العشرين - أوصاف طرفة وتشبيهات بشار بن برد ، فهو ليس بفصيح ولا بعربي .

ويخيل إلى أن هذا الفريق يخلط بين اللغة والأدب ، ويتجاهل طبائع اللغات والمجتمع معاً ، فاللغة شيء والأدب شيء آخر ، فقد يضعف الأدب في أمة ، ولكن تبقى لغتها وسيلة للتعبير والتفاهم بقدر ما يتيسر لها .

على أن اللغة نفسها في حركة دائمة وتاريخها مجموعة أحوال متعاقبة .
وليس ثمة كمال مطلق في عالم اللغات ، ولا تقديس لعصر بعينه ، وكل
ما في الأمر رقي وكمال نسبي ، وأكمل اللغات وأمثلها ما حاكى العصر
وتلاقى ، في يسر ، مع حاجات المجتمع العملية والعلمية .



إن اللغات في حركة مستمرة ، فمن العبث أن نعترضها ونقف في طريقها ،
أو أن نفرض عليها قوالب جامدة لاتلبث أن تخرج عليها ، وإن الصورة
المثالية القديمة التي كانت تفرض للغات لا يقرها العلم المعاصر ولا يقول بها ،
فقد أصبح يدعو إلى مثالية أخرى عملية ونافعة . فاللغة المثالية هي تلك
التي تصدر عن روح العصر ، وتتمشى مع حاجاته ومطالبه على أنحصر
صورة وأوضح مظهر ، ذلك لأننا في جيل ينشد الاقتصاد والسرعة في كل
شيء ، وينفر من تلك الألفاظ والعبارات التي تعوق تفكيرنا وحركتنا ،
هذا إلى أننا نتعشق الوضوح الذي تمليه الديمقراطية وتقضي به الحياة
الحررة الصريحة .

تطور اللغة

العالم يسير ، وقل من شك في سيره ، وقديماً قال الناس بالتطور ، وأخذت به مدارس مختلفة . وكل فلسفة تسلم بمبدأ التحول ، والصيرورة لا يمكن إلا أن تكون تطورية . وعد أرسطو على رأس القائلين بالتطور في التاريخ القديم ، وسار على نهجه كثيرون من فلاسفة التاريخ المتوسط والحديث . ولكن أحداً منهم لم يدفع نظرية التطور تلك الدفعة القوية التي دفعها إياها « هيرت سبنسر » في النصف الأخير من القرن الماضي ، فقد حاول أن يقيمها على دعائم علمية . وفي ضوء التقدم العلمي يزداد الإيمان بها جيلاً بعد جيل ، بل نستطيع أن نقول اليوم عاماً بعد عام .

والتطور صادق على كل شيء . على الإنسان والحيوان والنبات ، على الفرد والمجتمع ، على المادة والصورة ، على الفكر واللغة . فكلها تسير وتتحرك ، وكلها تتحول وتتبدل . والعلم لا يبالي إن كان ذلك إلى أحسن أو أسوأ ، فهو إنما يعنى بالواقع وحده ، على أن التطوريين في أغلبهم تقدميون . ولم يكن عبثاً أن يتوالى في تاريخ الفكر البشري قرنان يسمى أحدهما قرن التقدم ، وهو الثامن عشر ، والآخر قرن التطور ، وهو التاسع عشر ، وكأنما جاء هذا ليفسر ذلك .

وما اللغة إلا قطعة من الحياة ، نشأت منها ، وسارت معها . وتغذت بغذائها ، ولذا كانت صورة للمجتمع الذي يتخاطب بها . تنهض بنهوضه ، وتركد لركوده .. وتاريخ اللغات مرآة ينعكس فيها تاريخ الحضارات على اختلافها . ويزداد تطور اللغات كلما ازداد انتشارها وكثر المتكلمون بها ، لأنها تدخل في صراع مع لغات ولهجات جديدة ،

فتفقد بعض خصائصها . وتكشف عن القوى الكامنة فيها وعن عوامل بقائها .

• • •

ومنذ أخريات القرن الماضي عني بدراسة تطور اللغات باحثون مختلفون بين لغويين واجتماعيين . وتبينوا أن في العالم ما يزيد على ألف جماعة لغوية . حاولوا ردها إلى أسر وفصائل : ووقفت جهودهم بوجه خاص عند فصيلتين هامتين تتصلان اتصالاً وثيقاً بالحضارة الإنسانية ، وهما « الهندو أوروبية » والسامية . وتحت كل فصيلة من هذه الفصائل عدة لغات - ومتكلمو كل لغة يختلف عددهم اختلافاً بيناً ، فهناك لغات يبلغ متكلموها مئات الملايين ، وأخرى يهبط عدد الناطقين بها إلى عشرات من الناس . ومن بين هذه اللغات أمهات تفرعت منها فروع مختلفة اندثر بعضها وعمر بعضها الآخر . ومن بينها لهجات محلية تحولت إلى لغات إقليمية أو وطنية .

ولقد كشفت الدراسات الأنثروبولوجية عن عوامل شتى في تطور اللغة ، فلاحظت أن لغة الشعوب البدائية مجرد حركات وأصوات تعبر عن مشاعر ووجدانات ، وما أشبهها بلغة الحيوانات . وفرضت الحفلات الجماعية هذه الحركات والأصوات على جميع الأفراد ، وبمضي الزمن أخذت الأصوات تتنوع وتتعدد ، وتولدت منها دلالات لفظية خاصة . ومن المرجح أن اللغات تبدأ أولاً بالألفاظ المفردة ، ولم تظهر التراكيب إلا في مراحل متأخرة واقتصرت الألفاظ في البداية على المحسوس والملموس ، فعبرت عن الأفعال والحركات ، ووقفت عند الأشياء المرئية والمسموعة ، ولم تسم إلى التعبير عن الأفكار والمجردات إلا بعد أن وصل المجتمع إلى مستوى ثقافي خاص . وللبعض الألفاظ عند البدائيين تأثير وقوى خفية ، ومنها ما ينبغي أن يبقى سرا لا يكشف عنه إلا لأشخاص معينين ، ولا يباح لغيرهم استعماله . ولم يكن تكوين الجملة أمراً هيناً ، ولكن أولاً بضم

لفظ إلى آخر ، ثم هذب ذلك ونسق ، وربطت أطراف الحملة بعضها ببعض بروابط خاصة .

واللهجة لغة جماعة أو إقليم خاص ، وكثيراً ما يختلف مدلول اللفظ الواحد من لهجة إلى أخرى ، وتؤدي الحقيقة الواحدة أحياناً بألفاظ متعددة بتعدد العشائر والقبائل . وتسود لهجة على أخرى لأسباب سياسية أو ثقافية أو اقتصادية ، فترجع لهجة الأقوى ، وتقود الوحدة الوطنية عادة إلى لغة قومية . وللثقافة شأن في تغليب لهجة على أخرى ، ولأمر ما سادت قديماً اللغة اليونانية في بلاد القسم الشرقي للبحر الأبيض ، واللاتينية في غرب أوروبا ، وسادت بعد ذلك اللهجة الباريسية على كل لهجات فرنسا . وللتجارة والمعاملات دخل في سيادة بعض الألفاظ واللهجات ، واستقرار لغة في مكان ما يحجرها ويقعد بها عن النمو والتطور . فإذا ما انتقلت وانتشرت تغذت بغذاء خارجي ، وأضيفت إليها عناصر أخرى ، واكتسبت حياة جديدة .

* * *

والعربية أشهر اللغات السامية ، تصعد إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون . اشتملت على لهجات مختلفة أخصها لهجة قريش التي امتازت بصفتها ورقتها ، وبسطة نفوذها على اللهجات الأخرى ، وكانت عاملاً من عوامل الوحدة اللغوية . وأعانها على ذلك رحلات القرشيين التجارية شتاء وصيفاً ، وما كان يقام على مقربة منهم كل عام من مهرجانات أدبية كسوق عكاظ ، والكعبة التي كان يحج إليها العرب في الجاهلية سنوياً ، ويسعون إليها من كل فج سحيق .

وكانت العربية محصورة في الجزيرة قبل الإسلام ، ثم أخلت تنتشر معه شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، من أواسط جبال الهند إلى جبل

طارق ، ومن البحر الأسود إلى بحر العرب . ودخلت في صراع مع ثقافات
ولغات أخرى كالفارسية والهندية ، والقبطية والبربرية ، وخرجت من هذا
الصراع ظافرة . أخذت من هذه الثقافات واللغات ما أخذت ، وتأثرت
بها دون نزاع . ولكنها سادت عليها ، وحلت محل بعضها بصفة نهائية ،
أو لمدة غير قصيرة .

وها هي ذى اليوم تواجه صراعاً ربما كان أشد أو أعنف ، فهناك
مستحدثات حضارية : علمية وفنية : لا بد أن تؤديها . وأن تحسن أداؤها .
وهناك لغات تنازعها البقاء ، بين وطنية وأجنبية ، ولا بد لها أن تقاومها
وتظهر عليها . والدلائل قائمة على أنها ستحظى بنصر لا يقل عن نصر الأمس ،
فهي تطرد اللغات واللهجات المزاحمة ، وتحرص على أن تعبر عن العلم
والحضارة المعاصرة في دقة ووضوح . ولا تقنع بأن تكون مجرد لغة وطنية
أو قومية ، بل تأبى إلا أن تكون لغة عالمية ، لها علمها وأدبها ، يؤخذ عنها
كما تأخذ عن غيرها .



ولا شك في أن هذا يلتقي على العلماء والأدباء واللغويين العرب أعباء
ثقلاً مستمرة ، فهم مطالبون دائماً بأن يتتجوا ، أن يعدلوا وينقحوا ، أن
يهذبوا وييسروا ، أن يبتكروا ويحددوا ، أن يملثوا اللغة — في اختصار —
حياة وقوة وحركة .

القياس في اللغة

لا حياة للغة بدون ابتكار ألفاظ جديدة تواجه الزمن ومستحدثات التطور . وهذا الابتكار هو ما سماه اللغويون « الوضع » . وأهم سبله الاشتقاق والقياس . ومن أخص خصائص العربية أنها لغة اشتقاقية . وفي الاشتقاق ما أكسبها مرونة ومناعة في آن واحد . فسمع لها بخلق ألفاظ جديدة ، وحافظ على ثروتها ، وحماها من الزيف والشطط .

واختلف من قديم في أصل الاشتقاق . هل هو المصدر أو الفعل؟ واستدل كل على رأيه ، وأغلب الظن أنه خلاف نظري لا طائل تحته . وقد وضعت للاشتقاق قيود تضيق آفاقه ، وتحدد ما يشتق وما لا يشتق منه . وكان هم مجمع اللغة العربية أن ييسر من أمره ويفك بعض قيوده ، ويشتق مما لا يشتق منه ، ويجعله في اختصار أداة طيعة في أيدي الأدباء والعلماء تمكنهم من أن يجدوا الكلمات الملائمة لأداء ما يعن لهم من معان ، وكلما نجحوا في الاشتقاق استغنوا عن العامي والأعجمي . ولم يحرص المجمع على أن يكون بصرياً أو كوفيّاً ، بقدر ما حرص على أن يواجه حاجات العصر ويحاول سدها . والاشتقاق في الواقع ضرب من القياس اللغوي .

* * *

واللغة في أساسها عرف واستعمال يتوارثه الخلف عن السلف ، وله

أن يحدد فيه ويضيف إليه لكي تسير لغته الزمن ، وتسد حاجات العصر . ولهذا الاستعمال ضوابط تنظمه . وقواعد يسير على مقتضاها . وتكاد تلخص صناعة اللغويين في حصر هذه الضوابط ووضع هذه القواعد . وهم في الغالب فريقان : قياسون يكثرون من الضوابط ويتلمسون القاعدة لأدنى مناسبة ، وحفاظ يؤثرون السماع ويعتدون بالرواية ، ويمكن أن يرد الخلاف بين البصريين والكوفيين في أساسه إلى هذه التفرقة . وما دامت اللغة تسير فلا بد أن يسير القياس معها . ففي وسعنا أن نضع لها ضوابط كما وضع الأقدمون ، وأن نقعد القواعد كما قعدوا . وقديماً قال أبو علي الفارسي (٨٣٧٧) وتلميذه ابن جني (٨٣٩٢) : « ما قيس على كلام العرب فهو منه » . ولا غرو فقد كانا زعيمى مدرسة القياس في اللغة . ولقد كان أمون على أولهما أن يخطئ في خمس روايات من أن يخطئ في قياس واحد ، وحاول ثانيهما أن يضع للغة أصولاً كأصول الفقه . ولكن ربما غلا بعض اللغويين ، وشاء أن يضيق دائرة القياس ، أو أن يسد بابه . وللإحتراف تطرف أحياناً ، وعلى رأس هؤلاء ابن فارس (٨٣٩٥) وهو معاصر للفارسي وابن جني ، ويذهب إلى أنه « ليس لنا اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوا ، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه » . وكأنما ذهبت كلمته مثلاً ، وأضحت دستوراً يعمل به .

حقاً إن باب القياس في اللغة لم يخلق قط بصورة قاطعة ، ولكن انصرف الناس عنه ، واكتفوا بأن يرددوا ما قال به الأقدمون ، وبخاصة في القرون المتأخرة . وكان على مجمع اللغة العربية أن يرد إلى القياس اعتباره ، ويستعين به على تطوير اللغة والنهوض بها ، وقد واجه هذه المشكلة منذ البداية في مجلسه ومؤتمره ، وعرض لها في لجانه وعلى أيدي خبراءه . استمع فيها إلى بحوث ودراسات ، وانتهت إلى أصول ومبادئ ، وقرر بوجه عام « أن يؤخذ بمبدأ القياس في اللغة ، وأجاز الاجتهاد فيها متى توافرت شروطه » ، فلنا أن نقيس كما قاس القدماء ، وأن نشق

ونصرف كما اشتقوا وصرفوا؛ ذلك لأن العربية ليست ملكاً لأحد ولا طقوساً يتعبد بها، وإنما هي مجرد لسان يتصرف فيه أهله في ضوء ظروفهم وحاجاتهم. والقياس لفظي ومعنوي . ويراد بالأول وضع صيغ لأداء معان محددة : كصيغ اسم الفاعل واسم المفعول ، ودعامته الاشتقاق . والعربية كما قدمنا : لغة اشتقاقية، وقد سمح لها الاشتقاق بخلق ألفاظ جديدة ، وحماها من الزيف والشطط، وتيسيراً له أجاز المجمع الاشتقاق من أسماء الأعيان، فيقال مغنط من المغناطيس وقصدير من القصدير كما قيل قديماً ذهب من الذهب وكبرت من الكبريت ، وكان ذلك مقصوراً على السماع . وتوسع في المصدر الصناعي ، وجعله قياساً مطرداً يكتفي فيه أن تزداد النسب والتاء على الكلمة . وله أمثلة كثيرة مأثورة كالجاهلية والشعوبية والقدرية والخبيرية والربوبية والألوهية ، ويستعان به اليوم على أداء أسماء كثير من المذاهب والنظريات العلمية والفلسفية . وكلما أعوز الاستعمال العلمي لفظ : يسر المجمع أمر القياس فيه ، فأجاز صيغاً للدلالة على معان خاصة مثل فعّال للمرض، وفعّالة للحرفة، وفعّالان للقلب والاضطراب . وقال بقياسية أفعال المطاوعة جميعاً، وإن أنكرها بعض اللغويين إذا لم ترد في المعجمات، وقال أيضاً بتعدية الفعل الثلاثي قياساً بالهمزة أو التضعيف ، ولم يكن مسلماً به على إطلاقه .

ويراد بالقياس المعنوي إطلاق لفظ على حقيقتين مختلفتين لشبه بينهما ، فهو ضرب من المجاز اللغوي الذي يسمح باستعمال اللفظ في أكثر من معنى ، فتكون له عدة دلالات : واحدة لغوية ، والأخرى عرفية أو اصطلاحية . وقد أعان هذا التجوز على وضع مصطلحات كثيرة ، لاسيما أن لكل علم أو فن لغة تكاد تكون خاصة ، فالحكم مثلاً عند الفقهاء غيره عند المناطقة ، والحال عند النحاة غيرها عند الصوفية ، وهذا ولا شك باب من أبواب الوضع وسيلة هامة من وسائل خلق مصطلحات جديدة .

ولا شك في أن فتح باب القياس يطوع اللغة ويملأنا ثقة بها ، بل يزيدنا ثقة بأنفسنا: فنشعر بأننا نتصرف فيها ، وليست هي التي تتحكم فينا . وأصبح علماء اللغة لا يستنكرون اليوم أن من حقهم أن يجتهدوا ويقترحوا كل ما من شأنه أن ييسر العربية وينهض بها ، وما أشبههم بفقهاءنا الذين أعادوا النظر منذ أربعين سنة في تشريع الأحوال الشخصية ، ولأعموا بينه وبين حاجات العصر ومقتضياته ، ولا يزالون ينظرون . وقد قاس المجمع واجتهد في الثلاثين سنة الأولى من حياته ، وانتهى إلى جملة صالحة من القرارات العلمية تزيد على المئتين ، أخرجت في كتاب خاص . ولا بد له أن يستمر في قياسه واجتهاده كي تسير اللغة وتتطور ، وله في كل مؤتمر سنوى قرارات ومقترحات تمس متن اللغة وتراكيبها ، أو تنصل بنحوها وصرفها أو تعالج مشكلات إملائها وكتابتها ، وقد أخرج أخيراً كتاباً في «أصول اللغة» يعرض لقراراته في الخمس السنوات الأخيرة. ورحم الله صاحب شرح «درة الغواص» الذي قال : «لو اقتصرنا في الألفاظ على ما استعمله العرب العاربة والمستعربة لحجرتنا الواسع ، وعسر التكلم بالعربية على من بعدهم» .

٦

التعريب

تأخذ اللغات واللهجات بعضها من بعض ، بحكم القرابة . أو الجوار ، أو الرحلة والانتقال . فتحمل اللغة الأم عادة شيئاً من بقايا اللغات الفرعية التي انفصلت عنها — وللغزو والفتح . والتجارة والمعاملات ، شأن في تأثير اللغات بعضها ببعض . وتأخذ العامية من الفصحى ، وبالعكس ، وما العامية في الواقع إلا ضرب من تحريف الفصحى . وهي أفسح مجالاً للأجنبي والدخيل . وهذا التبادل بين اللغات واللهجات سنة ثابتة ، تتم عن قصد وعن غير قصد . وكثيراً ما يكسب اللفظ الدخيل بكساء جديد ، فينسى أصله ، ويصبح جزءاً من اللغة التي انتقل إليها ، ولا يشعر عامة أبنائها بأنه دخيل أو منقول .

* * *

ويطول بنا الحديث إن عرضنا لأمثلة من هذا التبادل بين اللغات قديمها وحديثها ، ويكفي أن نشير إلى أن العربية ، كغيرها من اللغات أخذت وأعطت قديماً وحديثاً ، فأخذت قديماً عن بعض اللغات السامية كالسريانية ، أو بعض اللغات الهندوأوربية كالفارسية واليونانية ، وقد أعطت هذه جميعاً بقدر ما أخذت منها أو يزيد . وأخذت حديثاً عن الفرنسية والإنجليزية والإيطالية ، وأعطتها ما تصرح معاجمها بأصله العربي . ولا يبدو على الأوائل أنهم عارضوا هذا الأخذ أو استنكروه ، ومن العربات القديمة الدرهم والدينار ، والسندس والإستبرق ، وفي « الكتاب » لسيبويه إشارة إلى بعض العربات ، ونص على أنها سابقة على

الإسلام . وكان العرب يلحقون تارة الألفاظ الأعجمية بأبنية العربية وأوزانها . وتارة أخرى يبقونها كما هي . وقد يطفى العرب على العرى الأصل ، لأنه أدل على المعنى . ولكن وضع التعريب حديثاً موضع الشك ، ولم يلهج الناس في آخريات القرن الماضي وأوائل هذا القرن بمسألة لغوية مثلما لهجوا با لتعريب . فأجازه قوم . وحرمه آخرون . وطبيعى أن يزداد التعريب حين يشتد اختلاط العرب بغيرهم . وحين تتعدد وسائل الأخذ والتأثر بالثقافات الأجنبية . وقد اتصل العالم العربى من جديد . منذ القرن الماضى . بالحضارة الغربية اتصالاً أوثق . وبدأت آثار ذلك واضحة فيما سرى إليه من ألفاظ أجنبية . لم يتقبلها بعض الأدباء واللغويين في سر . وقد سبق لعلماء اللغة أن نبهوا إلى ما هو مولد وما هو معرب ، وذهب فريق من المتأخرين إلى أن التعريب سماعى . وقصروه على ما ورد على ألسنة العرب الفصحاء ، وزعموا أنه لا يزيد على ألف كلمة . وكأنهم خشوا أن تطفى اللغات الأعجمية على الفصحى : فنعوا التعريب سدا للذرائع . وأبى كثير من أصحاب المعجمات تدوين الأعجمى المحدث ، وعابوا على صاحب « القاموس » نقله لكثير من أسماء النبات والحيوان والعناصر المعربة . والقائلون بالتعريب أنفسهم مختلفون فيما بينهم ، فمنهم من يرى ضرورة التزام الأوزان العربية ، ومنهم من لا يلتزمها ويعرب الكلمة كما وردت في لغتها الأصلية . وعلى رأس القائلين بعدم الالتزام سيبويه بين القدامى ، وأبو حيان والشهاب الخفاجى بين المتأخرين ، وثلاثتهم عرفوا إلى جانب العربية لغة أخرى أو أكثر .

* * *

وقد عالج مجمع اللغة العربية مشكلة التعريب منذ البداية ، ولكن في شيء من الحيلة ، فعرضت في دور انعقاده الأول ، وأصدر فيها قراراً لا يخلو من غموض ، ولعل ذلك راجع إلى الظروف التى كانت محيطة بهذا الموضوع حين ذاك . فقرر ما نصه : « يجوز المجمع أن يستعمل

بعض الألفاظ الأعجمية - عند الضرورة - على طريقة العرب في تعريبهم ، فما حد الضرورة ؟ ومن هم العرب المشار إليهم ؟ أهم عرب انجاهلية وصدر الإسلام ؟ وما طريقهم ؟ كل تلك نقط لم توضح في شرح هذا القرار والاستشهاد له .

ولكن لم يلبث الأمر أن استقر ، وأصبح للمجمع فيه تقليد واضح . فاتفق على التعريب من حيث المبدأ كلما دعت إليه الحاجة ، ووضعت له شروط وضوابط خاصة . فقصر على أسماء العناصر والأجناس ، كالأكسجين والإلكترون ، أو بعض الأجهزة كالبارومتر والترمومتر ، أو أعلام الأشخاص والأماكن ، أو ما يدل على سلسلة مواد متشابهة في الكيمياء ونحوها ، أو تلك الكلمات العالمية ذات الأصل اليوناني أو اللاتيني . وأقر المجمع معربات كثيرة وحديثة في العلوم والفنون ، وقبل ما اشتق منها من أمثال وأوصاف ، ما دام لا بد منه ، وأصبح التعريب لا ينظر إليه في توجس وخيفة ، كما كان الشأن من قبل ، ولا شك في أن اللفظ الشائع الاستعمال ، وإن يكن أعجمياً ، أولى من الملفظ الغريب المهجور ، مادام يؤدي المعنى في دقة ولا يخرج على أصول اللغة .

* * *

ولم يبق شك في أن من حق علماء اللغة أن يجتهدوا ويقترحوا ما من شأنه أن ييسر العربية وينهض بها ، فهم يشتقون ويقيسون أولاً ، وقد يلجئون إلى العامية ليأخذوا منها ما يسد حاجة العلم والحضارة ، ما دام يقوم على أصول عربية . فإن أعوزهم كل ذلك ، فلاضير عليهم من أن يأخذوا بالمعرب الذي تدعو إليه الضرورة . وواجب العلماء والباحثين أن يتمكنوا من لغتهم تمكناً يعينهم على تخير اللفظ الملائم لمعناه ، ولا يأخذون باللفظ الأجنبي إلا عند الضرورة .

منطق أرسطو والنحو العربي

لم يصادف نحو من العناية ما صادفه النحو العربي. نشأ في الثلث الأخير من القرن الأول للهجرة ، وبقى ينمو ويتكون خلال القرون التسعة التالية . فبحث عن الرواة ورجال البادية لتؤخذ عنهم الأساليب الصحيحة والتعابير المستقيمة ويستشهد بنقلهم وروايتهم . وتوالت المدارس بعضها على إثر بعض ، بين بصرية وكوفية ، أو بغدادية وأندلسية ، تتلاقى أحياناً وتتعارض أخرى ، أو تتوسط ، فتسلك مسلك الجمع والتوفيق . ووضعت الرسائل الصغيرة في بعض الموضوعات الفرعية ، كالمقصود والممدود ، والمذكر والمؤنث ، أو الكتب الجامعة ، نثراً أو نظماً ، « كالكتاب » لسيبويه ، « والمفصل » ، للزمخشري . « والكافية » لابن الحاجب ، « والألفية » لابن مالك ، « والمغني » لابن هشام .

وخلط النحو باللغة والأدب ، ثم فصل عنهما ليصطبغ بصبغة معينة ويعتمد على مصطلحاته الخاصة . وشرحت النصوص والشواهد ، وجمعت الشواذ والفرائب ، وأحصيت أوجه الخلاف بين نحوي ونحوي ، أو بين مدرسة وأخرى . وترجم للنحاة ورتبوا طبقة بعد طبقة . وقد تشعبت الدراسات النحوية بحيث استوعبت معظم نشاط المثقفين في القرون الستة الأخيرة . وفي اختصار يمكننا أن نقول مع دي بور : « إن علم النحو أثر رائع من آثار العقل العربي ، لما فيه من دقة في الملاحظة ونشاط

في جمع ما تفرق . وهو لهذا يحمل التأمل فيه على تقديره ، ويحق للعرب أن يفخروا به .

وإذا قارنا النحو العربي بعلوم النحو القديمة والحديثة . وجدنا أن أحداً منها لم يصادف ما صادفه من درس وعناية . فللاغريقية واللاتينية نحوهما . وللبعض اللغات الشرقية القديمة نحو معروف كالسريانية والعبرية . غير أنه لم يصل نحو من هذه إلى ما وصل إليه النحو العربي من عمق البحث وسعة الدراسة وتشعب الآراء . أما اللغات الحديثة فقد اختزلت - في كثير منها - نحوها واختصرته في أضيق الحدود الممكنة .

ولم يكن غريباً أن يعنى المسلمون بالنحو هذه العناية ، فهو أداة من أدوات فهم الكتاب والسنة ، وسيلة ضرورية لمن شاء أن يعالج العلوم الدينية ، وبخاصة من الموالى والأعاجم الذين ليست العربية فطرتهم ولا الفصحى سليقتهم . وقد جاء في مقدمة ابن خلدون : « أن من أراد الشريعة فلا بد له من معرفة علوم اللسان العربي ، وهي أربعة : لغة ونحو وبيان وأدب ، وأهمها النحو لأنه يبين أصول المقاصد بالدلالات ، ولولاه لجهل أصل الإفادة واختل التفاهم جملة » .

بيد أنه لا يزال في النحو العربي جوانب غامضة ، أخصها ما اتصل بنشأته والعوامل التي أثرت في تكوينه . وعندى أن هذه العوامل كثيرة ومتنوعة ، بين داخلية وخارجية . عربية وأجنبية . وسأقصر كلمتي هذه على منطق أرسطو وأثره في النحو العربي .

* * *

ولا شك في أن المنطق الأرسطي قد صادف في القرون الوسطى المسيحية والإسلامية نجاحاً لم يصادفه أي جزء آخر من فلسفة المعلم الأول ، فعرف أرسطو المنطق قبل أن يعرف أرسطو الميتافيزيقى ، وترجم «الأرجانون» قبل أن يترجم « كتاب الطبيعة » أو « كتاب الحيوان » . « وللأرجانون »

في العالم العربي منزلة خاصة . فكانت أجزاءه الأولى أول ما ترجم من الكتب الفلسفية إلى اللغة العربية ، ثم ألحقت بها الأجزاء الأخرى فترجمت وشرحت واختصرت . وتوالى البحث في المنطق لدى المدارس الإسلامية المختلفة : عند الفلاسفة والمتكلمين ، وعند الفقهاء .

والغزالي في حملته على الفلسفة والفلاسفة يضع المنطق جانبا لأنه إنما ينصب على قوانين الاستدلال العقلي بصرف النظر عن موضوعه ، ويذهب إلى أبعد من هذا مقررًا أن المنطق ليس خاصًا بالفلاسفة وحدهم بل هو متصل أيضاً بالتكلمين الذين يسمونه علم الجدل أو علم النظر . وقد استخدم الفقهاء كثيراً من المصطلحات المنطقية في بحوثهم الأصولية ، فتحدثوا عن الجنس والنوع ، والكلّي والجزئي ، والعام والخاص . واعتبروا القياس أصلاً من أصول التشريع الأربعة ، ورسموا قواعده ونظموا طرقه محاكين صنيع أرسطو في قياسه المنطقي . ونعود مرة أخرى إلى الغزالي ، فنجدته يقول في مقدمة كتابه «معيار العلم» : «إن النظر في الفقهيات لا يباين النظر في العقليات في ترتيبه وشروطه وعيابه» . ويضيف إلى هذا أنه مادامت المهم في عصره متجهة نحو البحث الفقهي ، فإنه سيقدم في هذا الكتاب المنطقي أمثلة فقهية كي يعم النفع . وفي كتاب آخر له أصولي - وهو «المستصني» - يرى لزماً عليه أن يقدم له بمقدمة منطقية خالصة يعتبرها ضرورية ومنتمة لعلم أصول الفقه .

* * *

ولم يقف الأمر - فيما نعتقد - عند الفقه والكلام والفلسفة ، بل امتد إلى دراسات أخرى من بينها النحو ، وقد أثر فيه المنطق الأرسطي من جانبين : أحدهما موضوعي ، والآخر منهجي . فتأثر النحو العربي عن قرب أو عن بعد بما ورد على لسان أرسطو في كتبه المنطقية من قواعد نحوية ، وأريد بالقياس النحوي أن يحدد ويوضح على نحو ما حدد القياس المنطقي .

وقد يقال : ما للنحو والمنطق : واللغة في أسامها عرف كثيراً ما يعصى
قوانين العقل والمنطق ؟ ولكن لانزاع في أن منطق أرسطو قد اشتمل على
مبادئ نحوية : ففي « المقولات » وهو الجزء الأول من كتبه المنطقية يعرض
للألفاظ . ثم يتناول في الجزء الثاني - « كتاب العبارة » - الحمل ويفصل
القول فيها : وهذه أمور في ظاهرها نحوية . ولم تخل كتبه المنطقية الأخدعي
من قواعد الأجرومية اليونانية .

ونود أن نلقى نظرة عاجلة على بعض هذه القواعد لتبين ما يمكن أن
يلحظ من شبه بينها وبين أول ما عرف من قواعد النحو العربي ،
ورائدنا في هذا « الأرجانون » من جانب « كتاب » سيبويه من جانب آخر .
ففي مقدمة « كتاب العبارة » يقسم أرسطو الكلمة إلى اسم وفعل معرفاً
الأول بأنه ما دل على معنى وليس الزمن جزءاً منه . ومعرفاً الثاني بأنه ما دل
على معنى وعلى زمن . ثم يشير في كتاب منطقي آخر - هو طوييقا أو
الجلدل - إلى قسم ثالث من أقسام الكلمة يسميه الأداة . وهنا ننتقل إلى
« كتاب » سيبويه فنجد أنه يبدأ بتقسيم الكلم إلى اسم وفعل وحرف ويعرفها
الواحد تلو الآخر تعريفاً يحاكي من بعض النواحي التعريف الأرسطي ،
ومن الغريب أن ما يسميه سيبويه حرفاً يسميه الكوفيون الأداة ، وكأنهم
شاءوا أن يحتفظوا بالمصطلحات المنطقية احتفاظاً تاماً .

وندع جانباً ما ورد على لسان أرسطو من حديث عن النوع والكم ،
أو بعبارة أخرى عن التذكير والتأنيث والإفراد والجمع ، وما عرض له
من توضيح الإثبات والنفي ، والطلب والاستفهام مما له بالنحو صلة وثيقة ،
ونكتفي بأن نشير إلى مثل آخر له شأنه ، وهو أساس تكوين الحمل فعلية
كانت أو اسمية ، ونعني به الإسناد . وذلك أن أرسطو عرض بإسهاب
لنظرية الإسناد في كتابي « المقولات » و « العبارة » ، ففي الأول يحاول أن يمحصر
أنواع المحمولات العامة الممكنة ، وفي الثاني يوضح الصلة بين المحمول والموضوع ،
ويعرف الجملة التعريف النحوي الصحيح . وهنا نعود إلى سيبويه ،

فنجده يتحدث في « الكتاب » عن المسند والمسند إليه ، وفي مكان آخر يعقد الفصل الآتي : « المبتدأ والمبنى عليه » . وكأنه يريد أن يقول الموضوع والمحمول عليه . وواضح أن الإسناد دعامة كل نحو عربي كان أو غير عربي .

وقد يتساءل : ما لسيبويه الفارسي أصلاً العربي تربية ولنطق أرسطو ولم يعرف له ولوع بالفلسفة والمنطق ؟ وما أحوجنا إن شئنا أن نجيب عن هذا السؤال إجابة واضحة أن نعرض لشيء من تاريخ الترجمة في الإسلام ، وأعتقد أن نشأة كثير من العلوم الإسلامية تتصل بهؤلاء المترجمين . ومن الثابت أن كتب أرسطو المنطقية الثلاثة الأولى (المقولات . والعبارة ، وأنا لوطيقا الأولى أو التحاليل الأولى) كانت معروفة لدى السريان ، وقد ترجمت إلى لغتهم قبل الإسلام ، ويقال أيضاً إنها نقلت إلى الفارسية . والمهم أنها ترجمت إلى اللغة العربية منذ النصف الأول للقرن الثاني الهجري ، ترجمها عبد الله بن المقفع عن الفارسية أو ابنه محمد عن السريانية على خلاف في ذلك . فهي إذن ثروة جديدة نقلت إلى العالم العربي ، ولا بد أنها قوبلت بما تستحق من تقدير ، إن من سيبويه أو من سبقه ممن اشتغلوا بالمسائل النحوية ، وقد كان النحاة يحاولون — شأن كل باحث — أن يستعينوا على ما هم بصددده بما يعرفون من لغات أو دراسات أخرى .

على أن هناك عملاً مشابهاً تم على مقربة من نخبة العرب الأول ، وهو وضع النحو السرياني بمدرسة نصيبين في القرن السادس الميلادي . ولا شك في أن هذا النحو تأثر بالنحو اليوناني ومنطق أرسطو ، ومن بين واضعيه والمشتغلين به مترجمون اتصلوا بالعرب ونحاتهم وعاشوا معهم . فيعقوب الرهاوي له شأنه في وضع النحو السرياني وهو معروف في الأوساط العربية ، وحنين بن إسحق مترجم آخر معاصر للخليل وسيبويه ، بل صديق للخليل ، وقد تعلم العربية في سن متقدمة وعانى منها ما عانى ، ومن اليسير أن نتصور أنه قد تبادل فيما تبادل مع الخليل

بعض القواعد النحوية : خصوصاً وهو يعزى إليه أنه ترجم بعض كتب الأجرومية اليونانية . وأتم مع ابنه إسحق البقية الباقية من كتب أرسطو المنطقية .

وفي وسعنا أن نقرر بعد كل هذا أن المترجمين في تعلمهم العربية وفيما نقلوا من كتب أجنبية قد بدءوا في القرن الثاني للهجرة فأثاروا جواً حول المشاكل النحوية ، ولأرسطو في هذا الجو نصيب ملحوظ . ولا يصح أن تغفل ما لهذا الجو من أثر على نخاة العرب الذين عاشوا فيه وتغذوا بغذائه المادى والمعنوى . ووجه الشبه بين المنطق والنحو قديم ، فصناعة المنطق من العقل والمعقولات كصناعة النحو من اللسان والألفاظ ، وهذا ما أشار إليه صاحب السلم بقوله :

(وبعد) فالمنطق للجنان نسبته كالنحو للسان
ولأمر ما سمي نخاة البصرة بأهل المنطق ، ولهذا التسمية ما لها من دلالة .
ولعل في هذا ما يفسر تلك المفاجأة التي أحدثها « كتاب » سيبويه .
بظهوره في تلك الصورة الجامعة ، دون أن تصل إلينا سوابق ممهدة له ،
الأمر الذي دفع صاحب « طبقات الأمم » أن يقول إنه لا يعرف كتاباً
ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها ، واشتمل على جميع ذلك العلم
وأحاط بدقائقه : غير كتب ثلاثة : « المجسطى » في الفلك ، « والأرجانون »
في المنطق و « كتاب » سيبويه في النحو . وفي هذه الدعوى تسامح ظاهر
وجهل بالتاريخ . وإذا تركنا الفلك والمنطق جانباً . وجدنا أنه عرفت
مؤلفات في النحو العربي قبل كتاب سيبويه ، وإن كانت لم تصلنا .
وقد مهدت له دون شك ، وإن كانت أقل منه مستوى ، كما مهدت
له البحوث الأدبية واللغوية السابقة والمعاصرة ، التي اضطلع بها أمثال
عيسى بن عمر الثقفى وأبو عمرو بن العلاء ، ولسنا في حاجة أن نلاحظ أنه
مزاج من الأدب والنحو واللغة ، هذا إلى أنه أشبه ما يكون بتوجيه لبعض
التعبيرات والاستعمالات ، منه بتقنين القوانين ووضع المبادئ ، فهو لم

يقعد قطعاً قواعد النحو على الصورة التي قعدت بها فيما بعد . وقد مهد له أخيراً تلك البحوث النحوية التي نقلها المترجمون عن نحو السريانية أو عن منطق أرسطو ، ويبدو على سيبويه نفسه أنه لم يكن مغضض العينين عن أمثال تلك المؤثرات . ويكفي أن نشير إلى ذلك الفصل الذي عقده في الجزء الثاني من الكتاب وعنوانه « باب اطراد الإبدال في الفارسية » .

ولقد سبق لبعض المستشرقين أن أثاروا هذه النقطة . وإن كانوا لم يقفوا عندها طويلاً . ونذكر من بينهم بروكلمان ودي بور وزميلنا الأستاذ ليمان . ولا يضير النحو العربي في شيء أن تتضافر عوامل شتى على تكوينه : أو أن يساهم منطق أرسطو في توجيهه إليه . وهناك ناحية أخرى من نواحي الصلة بين هذا المنطق والنحو العربي ونعني بها تلك الناحية المنهجية التي أشرنا إليها من قبل . والتي لم توضح بعد التوضيح الكافي .



وكلنا يعلم ما للقياس من أهمية في نشأة النحو العربي وغزارة مادته واستخلاص قواعده وضبط أحكامه . ذهب إليه النحاة الأول بحكم فطرتهم وسجيتهم ، مقارنين بين الأشباه والنظائر ومستنبطين منها الأوصاف المشتركة التي تلتقي فيها . وتوسع فيه من جاءوا بعدهم ، فجعلوه منهجاً إذا قواعد ومعالم محدودة ، عدوه منبعاً رئيسياً تستمد منه القواعد النحوية ، وربما حكّموه في لغات العرب وروايتهم ، فيقولون إن لغة أقيس من أخرى ، وإن تعبيراً ما يميزه القياس وإن لم يرد به السماع ، وكأنا يشرعون في النحو كما شرع الفقهاء في المعاملات . وهاهو ذا ابن جني يقول : « إذا بطل أن يكون النحو رواية ونقل ، وجب أن يكون قياساً وعقلاً » . ويقرر من بعده ابن الأنباري : « أن إنكار القياس في النحو لا يتحقق ، لأن النحو قياس كله ، فمن أنكره فقد أنكر النحو » ، ولا يعرف أحد من العلماء

بنكره . ويعزى إلى الكسائي ذلك البيت المشهور :

إنما النحو قياس يتبع وبه في كل أمر يستفح

وقد استخدم القياس في النحو منذ المراحل الأولى ، فعالجه عبدالله الحضرمي المتوفى سنة ١١٧ هـ ، وأخذ يقيس ويعلل الأقيسة . ونماه الخليل ابن أحمد ودعاه ، وتوسع فيه سيبويه أيما توسع ، وفي « الكتاب » أقيسة عدة واعتداد بالقياس في مناسبات مختلفة لترجيح رأى على آخر . وقد لا يقف عند استقرار الأمر الواقع ، بل يفترض فروضاً نظرية ويعطيها أحكاماً خاصة . وإذا كان نحو البصرة قد سبق نحو الكوفة بطبقتين كاملتين أو بما يقرب من مائة سنة . فإن البصريين يعتبرون واضعي دعائم القياس في النحو العربي . على أن الكوفيين أيضاً لم يترددوا في استخدام القياس والتعويل عليه ، وربما اكتفوا بالشاهد الواحد فاستنبطوا منه قاعدة عامة ، وبالغوا في الأقيسة النظرية والعلل العقلية ، وهانحن أولاء نقيس حتى اليوم ، وللمجمع قرارات سابقة تتصل ببعض الأقيسة النحوية ، كالنسبة إلى جمع التكسير ، واستعمال وزن مفعلة للمكان .

ومهما يكن من أمر الخلاف بين مدرستي البصرة والكوفة ، فإن مما يلفت النظر أن القياس النحوي نبت ونما في العراق حيث نبت ونما القياس الفقهي . ولم يجر ذلك عبثاً ، وإنما كان وليد الاعتداد بالرأى والتأثر بالثقافات الأجنبية ، ومن بينها منطق أرسطو . وهنا نقطة ينبغي توضيحها ، ونحن نتحدث عن قياس فقهي وآخر نحوي ، ومن الخطأ أن يظن أن الأمر فيهما كما هو في القياس الأرسطي ، ذلك لأن هذا الأخير يقوم في أساسه على سير من الكلي إلى الجزئي ، أما قياسنا النحوي وزميله الفقهي فعلى عكس ذلك يسيران من الجزئي إلى الكلي . ولكن ينبغي أن نلاحظ فوراً أن أرسطو لم يهمل هذا النوع من الاستدلال ، فقد عرض في لواحق قياسه لضربين من الاستدلال هما الاستقراء والتثيل . وإذا كان

لم يعتد بهما كل الاعتداد، فقد قدرلهما أن يستخدما في البحوث والدراسات العلمية التي جاءت بعد . وعلى الاستقراء بوجه خاص يعتمد البحث العلمي الحديث .

فالقياس النحوى تمثيل إن استنبطت القاعدة من شاهد واحد — الأمر الذى كان يبغضه نخاة البصرة — أو استقراء ناقص إن استخلصت القاعدة من عدة حالات فردية . وهو على كل حال فطرى فى صورته الأولى التى تتلخص فى تتبع الأشياء المتشابهة والبحث عن أسبابها وعلاها . وليس لأحد أن يدعى أن هذا القدر الفطرى من صنع أرسطو أو أى فيلسوف آخر ، ولكن يوم أن تتحول الفطرة إلى فن وصناعة ينبغى البحث عن عوامل هذا التحول . ولم يقف القياس النحوى عند تلك الصورة الفطرية التى أشرنا إليها ، بل فلسفه النخاة وافتنوا فيه إلى درجة كبيرة .

فبحثوا عن أركانه ، وقالوا كما قال الفقهاء إنها أربعة : أصل وهو المقيس عليه ، وفرع وهو المقيس ، وحكم قد يتنوع كما تنوع الأحكام الفقهية فيكون واجباً أو ممنوعاً أو حسناً أو قبيحاً ، وأخيراً علة وهى دعامة القياس ، ثم حاولوا بعد هذا أن يحددوا شرائط القياس النحوى الصحيح ، كما حدد أرسطو شرائط إنتاج قياسه المنطقى . وإذا كانت هذه الشرائط لم تصلنا على شكل كامل وفى صورة مهذبة فلنا نجد منها شذرات هنا وهناك فى « الحصائص » لابن جنى ، وفى « أصول النحو » و « الإنصاف » لابن الأنبارى ، وفى « الاقتراح فى أصول النحو » للسيوطى .

ودون أن نتبع مبادئ القياس النحوى ، نكتفى بأن نشير إلى أمثلة منها ، فيقال : يحمل الأقل الأندر على الأعم الأكثر لالعكس ، والحمل على ماله نظير أولى من الحمل على مالا نظير له ، وما جاء على أضله لايسأل عن علة . والقياس على الفاسد فاسد ، وإن أجازوا القياس على ما ورد فى ضرورة الشعر بشرط أن يستعمل فى هذه

الضرورة أيضاً . وفي هذه المبادئ وأمثالها ما يدل على أن نخاة العرب أرادوا أن يضعوا لقياسهم أصولاً تحاكي تلك الأصول التي وضعها الفقهاء ، وأصول القياس النحوي كأصول القياس الفقهي تلتقي في أنها ترسم خطى القياس المنطقي .

ومثل واحد من بين هذه الأصول كاف في توضيح ذلك ، ألا وهو مبدأ العلية ، وقد كان لهذا المبدأ شأن في النحو العربي لا يقل عن شأنه في المنطق الأرسطي ، ذلك لأن العلة هي الدعامة التي يقام عليها القياس النحوي والمنطق . وما نظرية العامل النحوية إلا وليدة مبدأ العلية الفلسفي . وإذا قلنا نظرية العامل فلنما نلخص النحو في جملة ، وقديماً قالوا : « النحو أثر يجلبه العامل » . وقد وضع أبو علي الفارسي كتاباً سماه « العوامل » استوعب فيه النحو جميعه ، كما وضع عبد القاهر الخرجاني كتاباً آخر اسمه « العوامل المائة » فيه خلاصة نحوية مستوفاة .

والعوامل ظاهرة ومضمرة ، قوية وضعيفة ، ومجموعة العوامل المتشابهة تكون أسرة واحدة . وهناك كلمات تعمل بنفسها وأخرى لمشايتها لغيرها ، فالأصل في العمل للأفعال ، وتلحق بها الأسماء إذا شابهتها . وتكون الكلمة عاملاً حيناً ومعمولاً حيناً آخر ، ولا يمكن أن تكونهما في آن واحد . والبحث عن العوامل بيان وتوضيح لعلل الإعراب ، وقد عرفت علل الإعراب أو علل النحو قبل أن تعرف نظرية العامل في ثوبها الكامل ، ويعتبر « كتاب » سيبويه أول بحث جامع للعلل النحوية .

فن أين استمد النخاة فكرة العلل أو نظرية العامل هذه ؟ يذهب فريق إلى أنهم تأثروا فيها بالفلسفة الكلامية ، وإذا كان لكل حادث محدث فلكل معمول عامل . ويقول الإمام الرضي إن « النخاة يحررون عوامل النحو كالمؤثرات الحقيقية » . ويذهب فريق آخر إلى أنهم تأثروا بالبحوث الفقهية ، ذلك لأن القياس النحوي شبيه كل الشبه بالقياس الفقهي . يقول ابن جني في « خصائصه » : « اعلم أن أصحابنا

انتزعوا العلل من كتاب محمد بن الحسن . جمعوها منها بالملاطفة والرفق . ويشير الزمخشري إلى شيء شبيه بهذا في مقدمة « مفصله » : ويضع السيوطي كتابه « الاقتراح في أصول النحو » على ترتيب يحاكي — فيما يرى — أصول الفقه في الأبواب والفصول والتراجم . ولكن ابن جني يعود فيقرر أن علل حذاق النحاة أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل الفقهاء ، لأنها أكثر مجارة للطبع .

وسواء أكانت العلل النحوية أشبه بالعلل الكلامية أم بالعلل الفقهية ، فإن كلا الفرضين لا يحمل الموقف تمام الحل . ذلك لأن علل الإعراب عرفت في أوائل القرن الثاني للهجرة قبل أن تذاع وتعرف علل المتكلمين والفقهاء وإذا صدق كلام ابن جني والزمخشري على القرن الرابع والخامس ، فإنه ليس من السهل أن توضّح به أحداث القرن الثاني . على أن فكرة العلية عند المتكلمين والفقهاء أنفسهم قد تأثرت بأصل أرسطي .

وذلك أن الفيلسوف اليوناني عرض لمبدأ العلية في كتبه الطبيعية والميتافيزيقية والمنطقية ، ويعيننا الآن الجانب المنطقي لهذا المبدأ . ففي « التحاليل الثانية » يشرح أرسطو العلل الأربع : المادية ، والصورية ، والفاعلية ، والغائية ، ويبين مدى استخدامها في التعريف والبرهان ، فالتعريف الصحيح هو الذي يوضح مادة الشيء وصورته أو يكشف عن باعته وغايته ؛ والقياس العلمي الدقيق هو الذي يستخلص النتيجة من عللها الحقيقية ، وكلما كان الحد الأوسط أحد العلل الأربع كان الاستنتاج سهلاً يسيراً والاستدلال واضحاً قوياً .

ولم يعمل النحاة شيئاً أكثر من أنهم حاولوا أن يدعموا قياسهم بمبدأ العلية ، كما فعل أرسطو من قبل ، فتلمسوا عللاً لما قرءوا وما سمعوا ، وفاسوا عليه كل ما يشاء معه . علته ، وتنوعت العلل عندهم كما تنوعت عند الفيلسوف اليوناني ، ف لديهم علة تشبيه كبناء الاسم لمشايبته للحرف ، وإعراب المضارع لمشايبته للاسم ، وعلة استئصال كحذف واو يعد

استثقالا لوقوعها بين ياء وكسرة ، أو علة تغليب مثل : وكانت من القانتين .
وقد غلوا في هذه العلل إلى حد أفقدها كثيراً من قيمتها . ومن أمثلة المتعلمين :
« العلة النحوية كالوردة تشم ولا يضغط عليها » . وإذا كان ابن جني
والسيوطي قد تصديا للدفاع عن العلل النحوية ، فما ذاك إلا لما أخذ
عليها من ضعف ووجه إليها من نقد .

• • •

هذه هي آثار منطق أرسطو في النحو العربي . وجه إلى بعض
قواعده ، وساهم في تكوين بنيانه ، وأعان على رسم منهجه ، وكان عاملاً
قوياً من عوامل غزارة مادته واتساع أبوابه ، ولكنه من ناحية أخرى
أصابه سقم يظهر بشئ من العقم والصورية التي بلى بها المنطق الأرسطي
نفسه ، فعنى بالصور والأشكال أكثر مما عنى بالدلالات والمعاني ، وأكثر
من القوانين والضوابط فأثقل على العلماء والمتعلمين ، وغلا في القواعد بحيث
أصبحت جوفاء لا تصدق إلا على حال أو أحوال محدودة ، ومع ذلك لم
تخل من شذوذ واستثناء ، وأسرف في التمارين غير العملية التي جاءت وليدة
تشبيه وفروض وهمية لا أساس لها . ومن يقرأ شرح السيرافي على « كتاب »
سيبويه أو شرح أبي حيان على « التسهيل » ، يلمس أن النحاة كثيراً ما أفسدوا
النحو بما وضعوا من فروع وعلل وأصول وأقيسة ومسائل غير عملية .
وفوق هذا فتح مبدأ العلية على النحاة باب فلسفة مفرطة وثقيلة
أحياناً ، فهناك علل أول وثوان وثالث ، وقد يكون للمعلول الواحد أكثر
من علة يتأولها كل نحوي كما يترامى له . وفي باب الممنوع من الصرف أمثلة من
تلك العلل المتهافنة ، وفي باب الاشتغال ولائها النافية أمثلة أخرى من تلك
الاعتبارات الفلسفية غير المقبولة . وكثيراً ما ورد في المسألة قولان أو أقوال ،
واستخدمت العلة الواحدة في إثبات الشئ وضده .

وكان من نتائج هذا أن اختلف النحاة فيما بينهم اختلافاً بيناً ، اختلفوا
مدارس كما اختلفوا أفراداً . وجد كل فريق في الدفاع عن رأيه والتدليل على

وجهة نظره ، واعتبرت التوجيهات النحوية ضرباً من النشاط الذهني الذي افتر فيه أيما افتنان ، فكانت مثار جدل طويل لم يعدم أرسطو الحيلة في أن يغذيه بوسائله الجدلية الكثيرة . ومن الغريب أن الخلاف فيما يصح أن نسميه فلسفة النحو أشد من الخلاف في النحو نفسه : ونظرة إلى كتاب الإنصاف لابن الأنباري تكفي لتوضيح ذلك : فالبصريون والكوفيون مجتمعون على رفع المبتدأ ، والخلاف بينهم في علة الرفع : هل هي الابتداء أو الخبر ؟ والنحاة متفقون على نصب المفعول معه ، وإنما يختلفون في علة هذا النصب ، فالجمهور يراها ما تقدمه من فعل ، والجرجاني يراها الواو المقارنة لهذا المفعول ، والزجاج يضمم لذلك فعلاً خاصاً ، والكوفيون يقولون بعامل معنوي هو الخلاف . ولا أظنني أبيح لنفسى أن أثقل عليكم بسرد أدلة كل رأى من هذه الآراء .

ولو وقف الأمر في هذا كله عند الخاصة والمتفرغين ، لقلنا لهم شأنهم وليسلكوا من سبل البحث ما يشاءون . أما أن يفرض على شباب المعلمين جميعاً ، فهذا تكليف بما لا طاقة عليه ، وإجهاد في غير طائل . ولعل هذا هو الذي دفع ابن مضاء الأندلسي إلى القول بإلغاء نظرية العامل ورفض القياس والعلل النحوية ، فوق ما كان لديه من اعتبارات أخرى نظرية . ولا شك في أن نظمنا التعليمية خطت خطوات فسيحة في إعفاء شباب المعلمين من هذه الفلسفات العقيمة والخلافات غير المجدية ، ولكن لاتزال دعوة تيسير النحو قائمة . وما أوجبنا أن نصنّفه تصنيفاً جديداً ، فنحذف منه مالا لزوم له - وما أكثره - ونستغنى عن التأويل والتقدير في الصيغ والعبارات ، ونقرب نحونا من روح العصر ومقتضيات الحياة الحاضرة ، ونراعى فيه تطور النحو في اللغات الأخرى .

وإذا كانت لجنة الأحوال الشخصية ، بل البرلمان ، قد يسر للناس كثيراً من أمر حقوق الأسرة ، فلن يعز علينا أن نيسر لهم قواعد لغتهم التي يتخاطبون بها ويكتبون قبل أن يتقاضوا ويختصموا .

العربية بين اليوم والغد

الفصحى تراث الماضي ومجد الحاضر ، بقيت على الدهر ، وسارت مع الزمن ، بحيث أضحت لغة قديمة وحديثة ، تجمع بين التليد والطارف ، وتربط الناطقين بها بأوثق رباط ، وقل أن تلتقي معها في هذا لغة أخرى ، ولا أظنني في حاجة أن أتحدث عن العربية في ماضيها ، ولا أن أعرض لتراثها . وإنما أود أن أقف قليلا عند حاضرها ، وأن أربط يومها بغدها .

* * *

وحاضرها ولاشك زاهر ، وإن عارض في ذلك قوم وأنكره آخرون . فهي لغة العلم والأدب والخطابة والصحافة ، وإلى مدى بعيد لغة المسرح والسينما ، والإذاعة والتليفزيون ، مفرداتها في صقل وتهذيب وإحكام ودقة ، ونمو وتكاثر . وجملها في تنوع وتجديد ، ويسر وسهولة ، وظرف ورشاقة . في شعرها خيال بديع ، ونسيج محكم ، ووحدة متصلة ، وتصوير خلاب الخلدات النفس وآيات الطبيعة وظواهر المجتمع . وبين الشعراء المعاصرين فحول لا يقلون عن شعراء العصر العباسي الأول . وفي نثرها تحرر وانطلاق ، ولين ورقة ، وتعليل ومنطق ، وأفكار ومعان لا مجرد صيغ وعبارات . وفيه أيضاً ألوان جديدة كالقصة والرواية والمقالة والبحث . وبين كتاب اليوم من يذكرنا بعبد الحميد وابن المقفع ، أو بالجاحظ ومحمد بن عبد الملك الزيات . وإنتاجها في جملته غزير ومتنوع ، قويم وإنساني . تضافرت عليه

جهود مختلفة وبيئات ثقافية متعددة في إفريقيا وآسيا، وآزرها نفر من العرب والمستعربين في أوروبا وأمريكا . ويمكن أن يقال إن أدبنا المعاصر سما إلى مرتبة الآداب العالمية الكبرى ، وبدى في ترجمته والأخذ عنه . كما يأخذ هو وينقل عن غيره . وبذا صحت نبوءة الأستاذ الإمام من أن دراسة جادة طوال خمسين سنة كفيلة بأن يبلغ الأدب العربي شأو الآداب الأوربية .

على أنا نعتقد أن لغتنا لاتزال في حاجة إلى تعهد ورعاية مستمرة ، وتجديد وتطوير . ولا ننكر أن هناك شكوى تردد من متن اللغة والنحو ، ومن تعقد المعاجم وصعوبة الرجوع إليها ، ومن فن الإملاء والكتابة العربية بوجه عام ، وعدم مطابقتها للنطق أو القراءة . ولاتزال الفصحى تصطدم بالعامية ، ويقع الناس في حيرة من أمر هذه الثنائية .

ولكن هذه الشكوى لا تخلو من غلو وإسراف ، فصدر العربية فسيح يتسع كل يوم لمصطلحات العلم ومقتضيات الحضارة . وتيسير النحو يشغلنا منذ عهد بعيد ، وقد بذلت فيه جهود متلاحقة ، وأصبحنا نؤمن بأن ملكة اللغة تكتسب خاصة بالحفظ والسماع أكثر مما تكتسب بالضابط والقاعدة . وظهرت معاجم عربية حديثة فيها وضوح ويسر ، وترتيب وإحكام ، ولا بد أن تليها معاجم أخرى أكثر وضوحاً وأعظم دقة . ولانألو جهداً في أن نيسر الإملاء والكتابة ، وقد وضعت في ذلك مقترحات شتى ، وأخذ ببعضها . وقد سبق لجمع اللغة العربية أن أقر مقترحات تؤدي إلى اختصار صور صندوق الطباعة اختصاراً كبيراً ، وطبقها عملياً ، وأفادت منها بعض الصحف الكبرى .

ونظرة إلى الوراء ترينا كيف ضاقت مسافة الخلف بين الفصحى والعامية ، ولغتنا الحاضرة تكاد تكون مزاجاً منهما ، فيها فصاحة الأولى وجزالتها ، وسهولة الثانية وقربها من الأفهام . ولاتزاع في أن فصحى اليوم تختلف من بعض النواحي عن الفصحى القديمة ، هي فصحى جديدة خضعت

للعصر وروحه ومقتضياته . وقديماً ذهب حفي ناصف إلى أنه في بيئة خاصة وبضرب من المراتة والدربة يمكن القضاء على العامية في نحو عشرين سنة : وحاول عاطف بركات أن يطبق شيئاً من ذلك في مدرسة القضاء الشرعى .

• • •

ومهما يكن من أمر فيجب أن نعرف بأنه إذا كان في العربية قصور فهو قصورنا : فقد استطاع أجدادنا أن يؤدوا بلغتهم ثقافة استرعت الأنظار ، وكانت موضع تقدير وإعجاب في الشرق والغرب . ونعتقد أن الغد كفيل بتدارك ما فات ، واستكمال ما نقص . وإنا لنعول عليه كثيراً . والأشواط التي قطعناها في توسيع متن اللغة وإفساح صدره لمستحدثات العلم والحضارة ثروة مكتسبة ، وما أجددنا أن ننمينا . والخطوات التي مشيناها في سبيل تيسير النحو على الناشئين برهنت على نفعها ، وأصبحنا نؤمن بضرورتها . ولا يلائم عصرنا في شيء أن نجعل من الإملاء مشكلة تعليمية ، وكلما يسرنا رسم الحروف كسبنا زمناً : وساعدنا على نشر التعليم .

ونزق أن تقرب ما أمكن لغة التخاطب من لغة الكتابة ، وأن تتوثق الوشائج بين الناطقين بالضاد في مختلف الأقطار ، وأن تتضاءل الفوارق بين اللهجات ، ذلك لأننا نعيش في عصر التعليم والثقافة الشعبية ، في عصر الصحافة والسينما ، في عصر الإذاعة والتلفزيون . فتكافح الأمية ، وينشر التعليم في مختلف البلاد العربية . ويقرأ الأطفال والشبان ويكتبون بلغة سهلة وأسلوب هين . وتنفذ العربية إلى الفصل والملاعب ، والمنزل والحقل ، والمصنع والمتجر ، وتنشر الكتب الشعبية وسلاسل القراءة المبسطة ، ويطلع منها عشرات الآلاف بل مئات الآلاف ، وتتبادل الصحافة اليومية والأسبوعية والشهرية بين المدن والعواصم ، فتوحد طرائق التعبير ، وتقدم ألواناً من الأدب الرفيع . وبيننا كتاب وأدباء يتمتعون إلى العالم العربي ، بقدر ما ينتسبون إلى وطن خاص ، لهم

قراؤهم في كل بلد عربي . وهناك صحف أسبوعية وشهرية عربية تكاد توزع في الخارج بقدر ما توزع في الداخل .

والقلم العربي أصبح ذا رسالة أدبية ولغوية إلى جانب رسالته الفنية والاجتماعية ، وكثيراً ما يحاكي أسلوب الحوار والغناء المصري في شمال إفريقيا ، أو في الكويت والإمارات العربية . وللإذاعة والتلفزيون شأنهما في تقويم النطق وتقريب بعضه من بعض . وفيهما يتلى القرآن ويرتل غير مرة من عدة محطات في اليوم الواحد ، وهو خير مقوم للألسن . وهاتان الوسيلتان تخاطبان الأُمى ، كما تخاطبان القارئ والكاتب . وتصلان إلى القرية كما ترسلان في المدينة . وهناك أُمم تحاول أن تنشر لغتها وتعلمها للناس عن طريق الإذاعة المسموعة أو المرئية ، وما أجدرنا أن نوجه إذاعتنا العربية — فيما نوجهها — إلى هذه الغاية ، لاسيما أن هناك إذاعات أجنبية تحرص على النطق والأسلوب العربي السليم أكثر مما تحرص بعض الإذاعات العربية .

ويكتب العلم والفلسفة والفن والتكنولوجيا الآن بلغة عربية واضحة . وتدرس بها في الجامعات والمعاهد العليا ، فضلاً عن المدارس الإعدادية والثانوية . وهناك دراسات لاتزال تقدم بلغة أجنبية ، ولكنها ستلبس لاحالة الثوب الوطني ، وستؤدى باللغة العربية . ونتوقع تبادلاً أتم واتصالاً أوثق بين الأدب العربي والآداب الأخرى ، وهما نحن أولاً نرى القصة أو الرواية تترجم اليوم إلى العربية ، ولا يمض بضعة أشهر على تأليفها في لغتها الأصلية ، ولن يستبعد مثل هذا على بعض إنتاجنا الأدبي ، وبين دور النشر الأجنبية ما يسعى جاهداً إلى ترجمة بعض نقائسنا الأدبية المعاصرة . ولا شك في أن المؤتمرات الأدبية والعلمية تزيد هذا الاتصال وثوقاً وتأكيذاً ، وما أحوجنا أن نكثر منها ، ونجعلها عربية ومختلطة ، كي تفتح النوافذ على مصراعها ، ويجدد الهواء والفكر من حين لآخر .

لا أظنني أبعث بهذا آمالاً عذبة وأوقظ أحلاماً لذيذة : بل أبني على واقع حي ملموس . وأنا على يقين من أنا إذا أخذنا الأمور في جد . وآمننا بعربيتنا إيماناً صادقاً . فإننا سنجعل منها أداة من أدوات التعبير لا تقل عن أية لغة من لغات الدنيا الكبرى . وإن لغة تأخذ بالقياس والاشتقاق لا يعز عليها مطلقاً أن تقدم اللفظ الملائم لكل معنى جديد .

العربية بين اللغات العالمية الكبرى

لغة قداسة تستمدّها من وحى السماء ، أو من إجماع أهل الأرض .
ومن أسباب قداسها أن تصبح لغة التقرب والعبادة . أو أن يتزل بها
كتاب سماوى يهبها من قداسه ، ويضئ عليها من جلاله . ولا شك في أنها
ظاهرة تحظى بما تحظى به الظواهر الاجتماعية الأخرى من سلطان ، وتنال
ما تناله من اعتداد وكرامة . وهى في مقدمة مقومات الأمم والشعوب .
ولقد اعتمدت العربية على هذين المصدرين ، فهى لغة الدين
والدنيا ، والعبادة والسياسة . بها أنزل القرآن وبها حفظ ، ونشأت حوله
دراسات لغوية متنوعة ، وهناك طقوس دينية لا بد للمسلم أن يستخدم
فيها ألفاظاً وجملاً عربية كيفما كانت لغته الوطنية . ويوم أن أخذ العرب
في بسط نفوذهم ، انتشرت العربية معهم . فكانت تدرس في أصبهان
وشيراز ، كما كانت تدرس في دمشق وبغداد . وظهر كتاب وشعراء
بالعربية في قرطبة والحمراء ؛ كما ظهروا في القاهرة والقيروان . وأضحت
لغة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ؛ من أواسط الهند
شرقاً إلى جبل طارق غرباً ؛ ومن البحر الأسود شمالاً إلى المحيط الهندى
جنوباً . وكانت لغة عالمية قبل أن يعرض المحدثون لفكرة اللغة العالمية ،
ويحددوا معالمها .

* * *

إن فكرة اللغة العالمية تصعد إلى القرن السابع عشر ، تنبه إليها
لييبترز بوجه خاص ، بعد أن رأى أن لغة العلم أخذت تتبلبل بتعدد

اللغات الأوربية الحديثة : وقد كان الفلاسفة والعلماء الغربيون يلتقون من قبل عند اللاتينية . ففكر في جمع « ألف باء » الفكر الإنساني ، وحصر الأفكار البسيطة والمركبة . وإذا ما تم له ذلك ، وضع لكل فكرة رمزاً يعبر عنها ويدل عليها .

ويوم أن يتفق العلماء على هذه الرموز ، تصبح لغتهم المشتركة التي يتفاهمون بها ، ويلتقون عندها ، وإذا كان لم يقدر له أن يكون هذه اللغة المنشودة : فإنه وجه النظر إلى فكرة اللغة العالمية التي شغل بها كثيرون من بعده .

وقد عني بها عدد غير قليل من الباحثين في القرن التاسع عشر ، وعلى رأسهم طبيب روسي اقترح لغة « الإسبرنتو » التي قدر لها أن تصادف نجاحاً لدى كثير من الهيئات العلمية . ولا تزال جمعيات لغوية وفيلولوجية تعالج مشكلة اللغة العالمية ، وتدلى فيها بمقترحات ظهر منها في النصف الأول من هذا القرن ما يزيد على خمسين مقترحاً . ويلحظ في اللغة العالمية بوجه عام أن تقوم على أبجدية قليلة الحروف ما أمكن ، ومفردات محدودة تنى بالغرض دون تكرار أو ترادف ، ونحو مطرد ميسر ، وهجاء سهل وكتابة واضحة ، وكأنى بالفكرة تلائم بعض اللغات الخاصة كلغة المنطق أو لغة الرياضة . أما أن تطبق في المجتمعات الفسيحة فهذا ما لا سبيل إليه ؛ لأن لغة الجماهير لا تصنع صنفاً ولا تفرض فرضاً ، ولا بد لهذه الجماهير أن تضع لغتها بنفسها ، وأن تتصرف على حسب ظروفها وحاجاتها .

* * *

ومهما يكن من أمر فهناك لغات يتخاطب بها عدة دول ، ويتفاهم بواسطتها عدة شعوب ، وهي أشبه ما تكون باللغة العالمية . وقد قضت الفرنسية نحو قرنين أو يزيد وهي لغة السياسة والدبلوماسية في العالم بأسره ، وتعد الإنجليزية اليوم لغة المال والأعمال بوجه عام . وسبق لنا

أن أشرنا إلى أن العربية كانت لغة عالمية منذ عهد بعيد ، وفي وسعها الآن ألا تقف عند العالم العربي . وأن تمتد إلى بيئات ومجتمعات أخرى في آسيا وإفريقيا . ونذكر أن الباكستان — في بدء استقلالها — اتجهت نحو العربية ، وودت أن تصبح لغتها الوطنية ، ولو قدر لها أن تسير في هذا الطريق لحقت في العشرين سنة الماضية خطوات يعتد بها . وبين الأردنية — لغتها السائدة — والعربية وشائج قديمة . ونعتقد أن أندونيسيا ترحب بنشر العربية في ربوعها ، لو يسر لها ذلك . وفي إفريقيا مشاكل لغوية معقدة ، وكم يسعى اليونسكو وراء حلها ، ويسلم بأن للعربية شأناً في هذا الحل . فهناك دول إفريقية حديثة في بلبلة من أمر لهجاتها المتعددة ، وفي وسع العربية أن تحل محل كثير من هذه اللهجات ، برغم النزعة الأنجلوسكسونية أو الفرنكوفونية التي تصادف بعض الأنصار والمؤيدين . وقد استطاعت اللغة السواحلية منذ زمن أن تكون همزة وصل بين كثير من شعوب إفريقيا وقبائلها ، وهي لغة تربطها بالعربية صلات معروفة .

• • •

ولاسبيل لانتشار لغة إلا إذا كان في طبيعتها ما يعين على ذلك . وأبجدية العربية محدودة الحروف ، وهي لا تزيد عن أبجدية الإسرنو ، وأصواتها تكاد تكون شاملة ، ومفرداتها غزيرة ، ولكن كثيراً ما يختلط فيها المهمل بالمستعمل والغريب بالمألوف . وليس بعزيز أن يختار قدر منها يلائم مطالب الحياة الحاضرة ، ويضمن في معاجم خاصة ، ونحن نعلم أن الألفاظ المتداولة في حديث فرد وكتابه أقل كثيراً من مادته اللغوية . ولا شك أن معجمات كهذه تيسر تعلم العربية على الأجانب ، وتساعد على نشرها في بيئات لاعهد لها بها . ويؤم جامعاتنا اليوم في مصر وبغداد عدد غير قليل من طلاب العلم الذين ليسوا من أصل عربي ، وواجبنا أن نيسر مهمتهم ، ونطوع لغتنا لهم . وقد بدلت في ربع القرن

الماضي جهود لوضع معجمات عربية مختصرة . تقف عند الكلمات الكثيرة الورد والذائعة الاستعمال . وأسهم المستشرقون في ذلك بنصيب . إلا أنا لانزال دون الغاية . ولم نصل بعد إلى معجم ملائم تماماً لنشر العربية .

وفي نحو العربية فلسفة وتوسع زائد . وعمق إن لاعم الخاصة فإنه لا يلائم العامة . ويمكن أن يتخير من قواعده المطرد الذي تبدو آثاره واضحة . ويسهل حفظه وتلقيه . ولنا في هذا محاولات متصلة منذ أوائل هذا القرن . بدأها حفي ناصف ، وتابعها على الجارم وتلاميذه . ويمكن أن يستخلص منها ما يتمشى مع عالمية اللغة . وفي الإنجليزية محاولات مشابهة يسرت نحوها وجعلته من الدروس الهينة . ويمكننا أن نقرر أنه لا توجد في الإنجليزية اليوم صعوبة تدريس الأجرومية التي يضيق بها المعلمون والمتعلمون أحياناً .

ولم يبق إلا مشكلة الكتابة . وهي بدورها تسير الزمن وتتطور معه فيسرنا كثيراً من أمر الهجاء والإملاء ، وما أجدرنا أن نتابع هذا التيسير . على أن أخطاء الإملاء فقدت كثيراً من خطرهما . وأصبحت بحيث لا ينظر إليها نظرة الماضي القاسية . ونحن نقرأ اليوم أكثر مما نكتب . فإذا ما وحدنا صورة المقروء سهل فهمه وتبعه . وحروف الطباعة ذات شأن في تيسير الكتابة العربية . وينبغي أن تكون ذات شكل ثابت وواضح ، وإنا لنلاحظ تطورها في الثلاثين سنة الأخيرة . وكان لمجمع اللغة العربية نصيب في هذا التطور .

وكل تلك أمور أقرب إلى المنهج والطريقة ، وألصق بالبيداجوجيا ووسائل الإيضاح والتعليم ، ولا يضير اللغة في شيء أن نأخذ بها ، وما أجدرنا أن نفعل ؛ إن أردنا أن تستعيد العربية مكانتها التي حظيت بها في الماضي ، وأن تؤدي رسالتها كاملة بين اللغات العالمية الكبرى .

الباب الثاني

في المصطلح العلمي

لغة العلم

أداة البحث ، وسيلة الشرح ، ولاحياة لعلم بدونها ، يلتقى عندها العلماء ويعول عليها الطلاب ، وعلى أساسها يقوم التأليف والنشر . تسير . بسير العلم ، وتقف بوقوفه . وهى لغة الوضوح والدقة ، والبيان والسرعة . يصطلح عليها العلماء ، فتصبح لغتهم الخاصة . ولكل علم مصطلحاته ، وكلما تقدم البحث فيه نمت وتباينت وتحددت . يبدأ المصطلح هزيلا متردداً ، ثم لا يلبث أن يقوى ويستقر ، وتاريخ العلوم إلى حد ما تاريخ لمصطلحاتها .

• • •

ولو رجعنا إلى تاريخ العلم اليونانى لوجدنا أن لغته بدأت تكون معه منذ القرن السادس قبل الميلاد ، ثم أخذت تنمو وتتضح فى القرنين الخامس والرابع . فغذاها فيثاغورس برياضياته وأمدّها أبقراط بطبه ، وأقام أرسطو دعائم لغة العلوم الطبيعية . وللعلوم الفلسفية والإنسانية لغتها ومصطلحاتها التى ساهم فيها أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو وزينون وأبيقور . وقد انتقل قدر غير قليل من لغة العلم اليونانية إلى الثقافات اللاتينية والسريانية والعربية ، ولا تزال بعض آثارها باقية إلى اليوم فى اللغات الأوربية الحديثة .

ولم تنشأ لغة العلم فى الإسلام دفعة واحدة ، بل نمت وتنوعت بنمو العلوم وتقدمها . فبدأت العلوم منذ القرن الأول للهجرة فى تكوين لغتها ، وظهرت مصطلحات فى الفقه والتفسير والكلام ، وتلها أخرى فى الأخلاق والسياسة ، والطب والكيمياء ، والفلك والطبيعة . وخضع المصطلح العربى القديم لسنة النشوء والارتقاء ، فما تطور على مر الزمن . وعول واضعوه

على النقل والاشتقاق ، ولم يبالوا بأن يكون عربياً أصيلاً أو معرباً دخيلاً ، وربما آثروا المعرب إذا كان أدخل في المعنى وأكمل في الأداء . وكثيراً ما يحمل التعريب شارة الأصل الذي نقل عنه ، فنلاحظ الألفاظ الفارسية في مستحدثات الإدارة والحضارة ، واليونانية والسريانية في العلوم الفلسفية والطبيعية . وإذا ما لوحظ أن مصطلحاً لا يؤدي معناه أداء كاملاً ، عدل عنه إلى ما هو أدق وأضبط .

وما إن حل القرن الرابع الهجري حتى اكتملت لغة العاوم في الإسلام ، واستقرت مصطلحاتها بحيث تنوسى معناها الأول ، ولا يكاد يفهم منها إلا مدلولها العلمى الخاص . وتداولها الباحثون في المشرق والمغرب ، ولم تختلف من قطر إلى قطر ، فكانت لغة العلم واحدة في قرطبة والقيروان ، والقسطنطينية ودمشق ، وبغداد وأصفهان . وبدئ بتسجيلها في معجمات خاصة تحت اسم « مفردات » أو « تعريفات » ، ومن أوائلها « مفاتيح العلوم » للخوارزمي الذي ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع . ومن المصطلحات العربية ما نقل إلى الفارسية والتركية ، ومنها ما سرى إلى اللاتينية ، بل إلى بعض اللغات الأوروبية الحديثة كالإنجليزية والفرنسية .

ويوم أن ركد البحث العلمى في الإسلام ، ركدت لغته معه ، فجمدت المصطلحات وأضحت لا تجد فيها ولا ابتكار . وكان هم الخلف أن يردد ألفاظاً وصيغاً قال بها السلف ، وأصبحت اللغة العلمية ركيكة معقدة . ثم جاءت النهضة العلمية العربية الحديثة في القرن الماضي على فترة من البحث والدرس ، وحاولت أن تتدارك بعض ما فات . ولكن رجالها الأول — فيما يظهر — لم يكونوا على علم بماضيهم ، ولا على صلة وثيقة بعلومهم ومصطلحاتهم القديمة . فلم يفيدوا كثيراً من هذا التراث ، وأخذوا يؤدون الحقائق العلمية أداء لا يخلو من تعجل أو خطأ .

وكان على أبناء القرن العشرين أن يتداركوا هذا النقص ، ويصلحوا هذا الخطأ . وكان عليهم خاصة أن يتابعوا سير العلم في العصر الحاضر ،

ولم تستحث خطاه قط بقدر ما تستحث اليوم . وأضحت المصطلحات العلمية في نمو مطرد ، وتجديد لا ينقطع ، ولها في اللغات الأوروبية معجمات خاصة تزداد وتستكمل عاماً بعد عام .

ونستطيع أن نقرر أن العلوم العربية الحديثة قد خطت في نصف القرن الأخير خطوات فسيحة . أحيت بها مجد الماضي ، وتابعت سير الزمن . وأخذت تكون من جديد لغتها الخاصة مستعينة بالدراسات الجامعية من جانب ، وبالجامع اللغوية والعلمية من جانب آخر .

• • •

وللعالم أن يختار اللفظ الذي يرتضيه لأداء الحقيقة العلمية ، وحقه في وضع مصطلحاته لا يصح أن ينازع ، وحرية ينبغي أن تكون مكفولة . ولكن هذا الحق ليس على إطلاقه ، وهذه الحرية لا تخلو من قيود . وقد يشكو العلماء من قصور اللغة عن أداء ما يريدون ، فيلجئون إلى الرمز والإشارات : كما صنعوا في الرياضة والكيمياء . وللغويين شكواهم من تهجم العلماء على اللغة ، فيشتقون على غير قاعدة ، وينحتون في غير ما داع ، ويسرفون في التعريب واستعمال الألفاظ الدخيلة . وما أجدر الطرفين أن يلتقيا عند كلمة سواء .

فعلى العلماء أن يحبوا أولاً كل ما يمكن إحيائه من المصطلحات القديمة ، فإن لم يجلبوا فعليهم أن يقيسوا ويشتقوا من العربية . ولم يبق محل للشك فيما ترخص فيه اللغويون من جواز الاشتقاق من أسماء الأعيان والجواهر ، فيقال مكهرب وممغنط كما قال العرب قديماً مذهب ومفضض ، ولا للشك في قياسية المصدر الصناعي فيقال المثالية والكانطية ، كما قيل قديماً الجبرية والقدرية . ولنا أن نقيس فيما لم يقل بالقياس فيه لأداء دلالات خاصة ، فنستحدث أوزاناً جديدة لأسم الآلة ، أو للدلالة على الحرفة أو الداء ، ونجيز النسب إلى جمع التكسير كأحيائي ، وكان يقصر في الماضي على المفرد . وكل تلك أمور أقرها مجمع اللغة العربية منذ ربع قرن أو يزيد . وإن

لغة تيسر القياس والاشتقاق على نحو العربية ، لا يعز عليها أن تجد من الألفاظ ما تدعو الحاجة إليه .

وفي العامة قدر غير قليل يرجع إلى أصل فصيح ، وفي وسع العالم أن يفيد منه لوضع مصطلحه ، وبذا يرد إلى الفصحى ما أخذ عنها . فإن لم تسد العامة ولا الفصحى حاجته ، فله أن يلجأ إلى التعريب . وقد عرب العرب قديماً فأدخلوا عن اليونانية والهندية والسريانية والعبرية ، والفارسية والتركية ، وعرب المحدثون عن الإسبانية والإيطالية ، والإنجليزية والفرنسية . غير أنه يجدر بنا أن نقف بالتعريب عند أضيق الحدود الممكنة ، فيعرب خاصة ما يدل على أسماء الأعيان وأعلام الجنس كأكسجين وهيدروجين ، أو ما يدل على تصنيف عام من أجناس وأنواع في النبات والحيوان ، أو على سلسلة مواد متشابهة في الكيمياء ، أو ما نسب إلى علم من اسم شخص أو اسم مكان . أما ما وراء ذلك من الألفاظ المأخوذة من اللغة الدارجة فالأولى به أن يترجم . ويحتفظ في التعريب بالأصل ، مع تقريبه من النطق العربي ما أمكن ، ويحسن أن يضبط المصطلح المعرب تيسيراً لنطقه ، إلى أن يدخل في صلب اللغة ويصبح جزءاً منها .

وقيمة المصطلح في انتشاره والأخذ به ، وبذا يصبح جزءاً من اللغة العلمية . أما أن يختلف من باحث إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر ، فإنه يبتى عملة غير متداولة ، ولا يجدي في تعاون العلماء وتفاعلمهم ، وكم من مصطلحات ولدت ، ثم لم تلبث أن ماتت . وتوحيد المصطلح العلمي ليس مما يلزم به قانون ، أو تفرضه سلطة قاهرة . وسبيله الطبيعي إنما هو الكتابة والتأليف ونشر المصطلحات لكي تداع وتعرف . وينبغي أن يلتقي العلماء من حين لآخر في مؤتمرات منظمة ، أو في لجان أو مجالس ، ليتبادلوا الرأي في لغتهم ، ويتداركوا ما فيها من قصور أو خلل .

ولقد كان لليونان لغة علمية مسلمة ، ومن بعدهم الرومان ، وبقيت اللاتينية لغة العلم وحدها في أوروبا طوال القرون الوسطى . وأشرنا من قبل

إلى أنه كانت هناك لغة موحدة للعلم في العالم العربي شرقاً وغرباً. ويوم أن اضطربت الألسن في أوربا ، وأحس ليبتز في القرن السابع عشر بانكماش اللاتينية ، شاء أن يحل محلها لغة علمية عالمية، وأساسها حصر الأفكار الإنسانية ووضع رمز لكل واحدة منها . وإذا كان لم ينجح في محاولته ، فإنه وجه النظر إلى اللغة العالمية التي لا تزال مطمح كثيرين - وفي وسع العربية على كل حال أن تكون اليوم ، كما كانت بالأمس ، لغة علمية مشتركة بين أبناء العرب على السواء ، مهما تباعدت أوطانهم وتنوعت لهجاتهم .

ولغة العلم وثيقة الصلة بلغة الأدب ، تتعاونان وتتفاعلان ، ولا تكاد توجد نهضة أدبية إلا وتصاحبها نهضة علمية ، وكم من علماء وفلاسفة هم في الوقت نفسه أدباء. ويوم أن ازدهر العلم اليوناني ، ازدهر معه الأدب ، ووجدنا في أثينا إبان القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد حركة علمية وأدبية زاهرة ، وأفلاطون بين اليونان رمز للأدب الرفيع والفلسفة السامية . وفي القرن التاسع والعاشر الميلادى ، اقترنت في بغداد النهضة الأدبية بالنهضة العلمية ، ورأينا أئمة في العلم والأدب معاً ، أمثال النظام والجاحظ . وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وصل الأدب إلى قمته ، واتسعت آفاق البحث والدراسة العلمية ، وبسكال مثلاً رياضى وأديب في آن واحد . وأدب اليوم ذو طابع علمى واضح ، ويحرص العلم بدوره على أن يعرض في ثوب أدبي قشيب ، ويكفى أن نشير إلى برجسون شيخ الفلسفة الفرنسية المعاصرة الذي يعد بين كبار الأدباء .

* * *

وفي العالم العربي نهضة أدبية وعلمية لاشك فيها ، وقد بدأت تثقي أكملها . وسيؤدي العلم فيها رسالته ، ويسهم في كشف المجهول إلى جانب الجهود التي تبذل شرقاً وغرباً . وعلينا أن نوفر له كل وسائله ، وفي مقلمتها لغة واضحة حية متحركة .

مدى حق العلماء في التصرف في اللغة

دون أن نعرض لخصائص البحث العلمي المختلفة نكتفي بأن نشير إلى ثلاث منها رئيسية ، وهي : موضوع محدد يراد بحثه ، وطريقة واضحة يعالج بها ، ونتيجة ينتهي إليها . فلا يسمو بحث إلى مرتبة العلم إلا إذا انصب على مسائل معينة ، والدراسات غير المحدودة الموضوع ليست من العلم في شيء . وهكذا كان شأن الدراسات الإنسانية في بدايتها : اختلطت فيها مسائل متنوعة وموضوعات مختلفة . ونشأة العلم وتكونه يتلخص في تحديد موضوعه وحصر مسأله . والمتبع لتاريخ العلوم يدرك هذا التطور بوضوح .

والموضوع المحدود ينبغي أن يعالج على نحو خاص ، وهذا النحو هو ما يسمى الطريقة أو المنهج . والمناهج العلمية بوجه عام استقرائية يتقل فيها من الجزئي إلى الكلي ، وقياسية تسير من الكلي إلى الجزئي ، ومن هنا كانت العلوم ضربين : علوم استقرائية دعائمها الملاحظة والتجربة كالطبيعة والكيمياء ، وأخرى قياسية تقوم على طائفة من المبادئ والفروض المسلّمة كالحساب والهندسة . وإلى جانب هذه المناهج العامة هناك مناهج خاصة ، فالعلوم التجريبية وإن اتقت كلها في المنهج الاستقرائي يتميز كل واحد منها بمنهجه الخاص ، فلعلم الحيوان منهج يميزه عن علم النبات وهكذا .

وأخيراً من الموضوع المحدد وبالمنهج الخاص ينتهي البحث إلى طائفة من النتائج هي ثمرة العلم وغايته . وكلما كانت هذه النتائج أعم وأشمل كان البحث أدق وأكمل . والعلوم الكاملة هي تلك التي انتهت إلى طائفة من القواعد العامة والقضايا الكلية التي تصدق اليوم صدقها بالأمس

وفي الغد . وهذه هي القوانين العلمية التي من أنخص خصائصها العموم والشمول . وإذا كان العلم قد حارب الخرافة والعرافة من ناحية فإنه فتح من ناحية أخرى باباً يبيح للعالم أن يتوقع ويتنبأ في ضوء قوانينه التي تسمو على الزمان والمكان .

• • •

ولا شك في أن المصطلحات العلمية جزء وجزء هام من المنهج العلمي ، ولن يستقيم منهج إلا إن قام على مصطلحات خاصة يؤدي بها العالم الحقائق التي يعالجها ، وقد يما قالوا : العلم لغة أحكم وضعها . فالمصطلحات العلمية ضرورة من ضرورات العلم لأنها تستحضر المعنى بأيسر وسيلة ، وإذا كانت اللغة أداة من الأدوات البشرية المتقنة التي تربط بني البشر بعضهم ببعض ربطاً سريعاً وثيقاً ، فإن هذا يبدو أوضح ما يبدو في اللغة العلمية ، ويكفي حرفان متصلان ، مثل « يد » — « كم » ليستحضر العلماء حقائق ونظريات واسعة طويلة ، قد يطول شرحها لو حاولوا معرفة مدلولاتها ، ويوفر عليهم ذلك أن يتخيروا لفظاً معيناً هو المصطلح العلمي .

وكلما كان المصطلح دقيقاً محكماً كانت الصلة بين العلماء أوثق وأقرب ، وكان مجال الخلاف أقل ، ولذلك يقول ليبتر : « إن معظم الخلافات العلمية يرجع إلى خلاف على معنى الألفاظ ودلالاتها » ، ويوم يصطلح العلماء على دوال معينة تضيق مسافات الخلاف كثيراً . وليست قيمة المصطلح العلمي بمقصورة على العلماء وحدهم ، بل تتعداهم إلى المتعلمين ، فإن المصطلح العلمي وسيلة من يريدون التعلم ، فيستعان به على تقديم الأفكار للمتعلمين . وإذا كان هذا شأن المتعلمين فإنه أولى بمن يرغبون في دراسة علمية معينة ، إذ يعز عليهم تتبع هذه الدراسات إلا إذا ألما — ولو بقدر ما — بما اصطلاح عليه العلماء أنفسهم في لغتهم . ولعل هذا هو السبب في تلك النزعة العامة التي تدفع بعض العلماء

المتخصصين اليوم أن يقدموا العلم في لغة بسطة فيها هذه المصطلحات ما أمكن ، كي يجد المثقف العادي سبيلاً إليه . وعلى هذا النحو جاءت « السلطة العلمية »^(١) . التي اضطلع بها عالم فاضل ومجتمعي قديم .
 وواضح أن المصطلحات العلمية تنمو بنمو العلم : تبدأ - أولاً - محدودة ومتردة ، إذ يوضع لفظ لمعنى ما ، ولا يلبث أن يعدل عنه إلى لفظ آخر ، ومع الزمن ومع نمو العلم واكتياله أخذت هذه الاصطلاحات في التنوع والتعدد والاستقرار . وتاريخ العلوم تاريخ لمصطلحاتها ، والمتبع لتاريخها يلحظ هذا التطور في المصطلحات وحلولها محل أخرى ثم توسعها بعد ذلك .

• • •

إذا كانت المصطلحات لغة العلماء فلا ننسى أن هذه اللغة جزء من اللغة العامة ، ومن هنا كانت المصطلحات وثيقة الصلة باللغة . وهناك خلاف مشهور حول صلة اللغة بالمجتمع ، أو صلتها بالتفكير الفردي . ففريق يقول : إن اللغة مجرد آراء وأفكار أو عواطف وجدانات ، وفريق آخر يرى أنها ظاهرة اجتماعية تتأثر بالمجتمع وتخضع لحكمه ، وليس العامل الجوهري فيها تلك العواطف والوجدانات ، وإنما هو المجتمع وسلطانه وحكمه وقيوده وتقاليده .

وأظننا نكون أقرب إلى الصواب إن قلنا إن اللغة في حقيقتها تعبير عن أفكار وآراء أو انفعالات وجدانات بواسطة دوال وأصوات أقرها المجتمع وأخذ بها ، فاللغة صنيع الفرد والمجتمع معاً ، ولا قيمة لأصوات لا دلالة لها ، وقيمة هذه الدلالة في أن يفهمها مستمعو هذه الأصوات ويتفقوا عليها .

وإذا ما تركنا اللغة الوجدانية والعاطفية جانباً . وعرضنا لناحية علاقة الفكر

(١) اسم كتاب فيه مقالات علمية مبسطة ، كتبها الدكتور أحمد زكي .

باللغة ، وهي وثيقة الصلة بالبحث والدراسة والعلم ، وجدنا أن التفكير لا يكاد يتفصل عن اللغة ، ولا سيما إذا صعد إلى درجاته العليا وأضحى ما يسمونه التفكير المنطقي ، ولذا قيل : التفكير كلام نفسي ، وقال الشاعر العربي :

إن الكلام لى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً
فعلاقة الفكر باللغة وثيقة ، والمفكر نفسه يعز عليه أن يطمئن إلى فكرته إلا إن وجد اللفظ الذى يؤديها أداء يريحه . وكثيراً ما بقيت الفكرة حائرة لأن صاحبها لم يجد بعد الوعاء اللفظي المناسب لها ، وقد نلجأ إلى أيدينا فنشير بها وإلى رؤوسنا فنحركها حين نحس بأن الألفاظ لا تعبر تماماً عما نريد .

والمعنى الدقيق يحتاج عادة إلى لفظ دقيق ، ولولا تجدد المعانى ما تجددت الألفاظ ولا تبانت التراكيب . وازدهار الآداب المختلفة مقترن عادة بازدهار العلوم ، ففي « أثينا » فى القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد . ازدهرت اللغة اليونانية يوم أن ازدهرت العلوم اليونانية ، وفى بغداد فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة كان الأدب العباسى متشعباً ذا ألوان عدة وصور مختلفة ، لأنه كان هناك علم ودرس واسع متشعب متعدد . وأخيراً فى باريس فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وصل الأدب الفرنسى إلى قمته يوم أن اتسعت آفاق البحث والدراسة العلمية ، ولا يزال الأدب الفرنسى سائراً فى طريقه لأن باب البحث العلمى مستمر فى سيره إلى اليوم .

ويقولون : إن الجماعات البدائية لا تعرف كثيراً عن الألفاظ التى تؤدى المعانى الكلية أو المجردة . وما زال إلى الآن عالمها أقرب إلى المحسوسات ، ولذا اقتصرت ألفاظها تقريباً على الدلالة على جزئيات . وباختصار ، اللغة مدلول ودال ، ولا وجود لأحدهما بدون الآخر ، والمدلول الذى لا لفظ يدل عليه سر خفى كامن فى صدر صاحبه ، والدال الذى

لا يحمل في أثنائه معنى . صوت فارغ ولا قيمة له . وتبادل العلوم والأفكار بين الناس لا يتم لو لم تكن هناك ألفاظ يؤدونها بها . ومن أهم مزايا اللغة قدرتها على أداء المعاني المختلفة ، واللغة الحية هي تلك التي تجارى العصر وتقدم لكل معنى جديد وسائل الدلالة عليه .

قد يلجأ العلماء إلى وسائل أخرى للتعبير عن أفكارهم ، ولكن هذه الوسائل نفسها لغة ، فالرموز والأرقام التي يستعملها العالم لغة . وإن تكن لغة خاصة به . ومهما حاول العلماء أن يتخصصوا بلغتهم فهم مضطرون أن يربطوها باللغة العامة ، ولا يلجأ العلماء عادة إلى هذه الوسائل إلا رغبة في التحديد والاختصار وأداء المعنى العلمى على أدق الوجوه وأسرعها ، ومن هناك كانت رموز الجبر والكيمياء والهندسة ، إلا أن هذه الرموز قد اشتقت من اللغة العادية .

• • •

والعالم، وهو الباحث عن الفكرة، لا بد له أن يبحث أيضاً عن الوعاء الذى يؤديها فيه . وإذا كنا ندعو إلى حرية الفكر والبحث العلمى ، فن مستلزمات ذلك أن ندعو أيضاً إلى حرية التعبير عن هذا الفكر ، فيكون العالم حراً طليقاً فى أداء المعنى على النحو الذى يروقه ولا يستطيع أحد أن يعبر عنه تعبيراً أصلياً منه، وإذا كان عنوان بحثنا «مدى حق العلماء فى وضع المصطلحات العلمية» ، فإنه ينبغى أن نتفق على أن هذا الحق فى أساسه مطلق، والعالم حر فى اختيار اللفظ الذى يؤدى المعنى المراد .

والذى حدث فعلاً قديماً وحديثاً هو أن العلماء لم يكشفوا الحقائق وحدها، بل قدموا لها ما استطاعوا وسائل التعبير عنها . وقد لا يجد المخترع الأول اللفظ الملائم، فيأتى تلاميذه من بعده ويتداركون ما فاته . وهكذا يسير العلماء الواحد منهم تلو الآخر فى ضبط المعانى وتحديد الألفاظ المعبرة عنها . وتطور العلم تطور لمصطلحاته بقدر ما هو تطور لآرائه

ونظرياته . وفي تاريخ العلوم ما يوضح هذا التطور تمام التوضيح .
وكثيراً ما شكوا العلماء من قصور الألفاظ عن أداء الحقائق العلمية ،
فقد تعجز عن أدائها أو تؤديها على وجه غير دقيق . ولذا لجأوا إلى الرموز
كما صنع الكيميائيون والمناطق في المنطق الرياضي (اللوجستيك) . وذهب
« ليهتزر » إلى أنه يمكن أن تحصر الأفكار جميعاً باسمه « ألف باء » الفكر
الإنساني ، ثم يوضع لكل فكرة رمز خاص ، وبذا تكون اللغة العالمية .
وليس بغريب أن يقول ليهتزر بهذا ، وقد عاش في بيئة كانت اللاتينية فيها
لغة العلماء .

ومحاولته هذه دون نزاع أساس لكل المحاولات التالية التي ترى إلى
تكوين لغة تجتمع عليها الإنسانية كالإسبرنتو . ولست أدري أيمكن هذا
أم لا ، لأن الأفكار الإنسانية أشبه ما تكون بنهر جار يتجدد ماؤه في كل
لحظة ودون انقطاع ، ولا سبيل إلى حصرها هذا الحصر المنشود .
ومهما يكن من أمر هذه المحاولة التي لا تخلو من خيال وجراءة فإن
المصطلحات العلمية كانت ولا تزال وثيقة الصلة باللغة التي وضعت فيها .
ولكل علم مصطلحاته بل لكل مدرسة وكل عالم ، الأمر الذي دفع
إلى وضع المعاجم في مصطلحات العلوم المختلفة . ودون أن أعرض لأمثلة
من المعاجم الأجنبية أكتفي بأن أشير إلى معاجمنا العربية القديمة
« كمفاتيح العلوم » للخوارزمي ، « وتعريفات الجرجاني » ، « وكشاف
اصطلاحات العلوم » للتهانوي .

ولا أخفى عليكم أن متن اللغة عزيز دائماً على اللغويين ، فيغفرون خطأ
نحويًا ويتسامحون في أسلوب غير صاف ، أما أن يستعمل لفظ دخيل
فهذا مالا يقبل بحال ، وكم ثاروا من أجل ذلك وبالغوا في الثورة
أحياناً . غير أن مبدأ الحرية العلمية الذي قررناه من قبل يحملنا على أن
نسلم بأن قداسة متن اللغة لا يصح أن تقف عثرة في سبيل البحث والتقدم العلمي .
ومن حسن حظ الباحثين أن اللغات فصائل ، ومن الممكن أن يعاون

أفراد الفصيلة الواحدة بعضها بعضاً. فاللغات الأوربية التي ترجع إلى اللاتينية تستطيع أن تستعين بها فيما تحتاج إلى وضعه من ألفاظ جديدة، بل باليونانية أيضاً التي غدت اللاتينية من قبل . وكلنا يعرف الصدور والكواسع اليونانية وما أعانت عليه من وضع مصطلحات علمية في اللغات الأوربية. ولم يفت المعنين بالمصطلحات العلمية في الإسلام أن يستعبروا من اللغات السامية كالسريانية والعبرية ألفاظاً يؤدون بها المعاني الجديدة . والمعنى المنقول يحمل معه أحياناً اللفظ الذي كان يؤدي به في الأصل المنقول عنه . ولعل هذا ما يفسر الألفاظ الفارسية التي أخذ بها المسلمون في النواحي الإدارية ونظم الدواوين وبعض مظاهر الحضارة ، وما يفسر أيضاً شيوع الألفاظ اليونانية في الفلسفة والعلوم الإسلامية . وفي « مفاتيح العلوم » للخوارزمي ما يوضح ذلك تمام التوضيح .

والعالم وقد تحرر — وينبغي أن يكون كذلك — يستمد مصطلحاته من الفصحى كما يستمدّها من اللغة الدارجة . وفي أخذه عن الفصحى يشتق وينحت ويلجأ إلى المجاز ، فيستعير الكلمة من دلالتها اللغوية العامة ليستعملها في دلالة علمية خاصة . وكل تلك وسائل لجأ إليها علماء الإسلام إبان ازدهار العلم واللغة . وله أيضاً أن يأخذ عن اللغة العامية ، إن كان أداؤها للمعنى أدق وأكمل ، وليست في حاجة أن أشير إلى أن الصلة بين العامية والفصحى أكيدة ، وأن معاجنا اللغوية لم تستوعب المفردات العربية ، وربما كان الفارق بين العامية والفصحى مجرد اللهجة ونطق الحروف .

والمفردات العامية التي لا ترجع إلى أصل عربي أولى من غيرها في الاستعارة ، لأنها أقامت بيننا زمناً وألفنا استعمالها طويلاً . وللعالم أن يأخذ أيضاً عن لغة أجنبية فيعرب إن دعا الأمر إلى التعريب . وقد عربت ألفاظ أعجمية في الجاهلية والإسلام ، ولم ير العرب أي غضاضة في أن يضموها إلى ألفاظهم . وليس بلام أن يكون التعريب على أبنية

العرب ، وقد عربت فعلا ألفاظ على نحو ما كانت تنطق به في اللغة الأصلية .
والعلم وهو تراث الإنسانية جمعاء يجب أن يفسح مجال التبادل فيه ، وأن
تيسر سبله . ومن وسائل التيسير أن يسمح بتبادل الألفاظ كما تتبادل
الأفكار والمعاني .

وللعالم أخيراً أن يخترع بعض الألفاظ اختراعاً ويخلقها خلقاً ،
فيبتكر اللفظ كما يبتكر المعنى أو الحقيقة التي يكشفها بتجربته وملاحظته .
والألفاظ الجديدة غريبة وغير مألوفة ، ولكن الزمن كفيل باستساغتها ،
وسينتهي بها الأمر متى استقرت بأن تضاف إلى الثروة اللغوية .

* * *

في كل هذا ما يكفل حق حرية البحث المقلمة ، ولكن ليس
ثمة حق إلا ويقابله واجب . والحرية الصحيحة هي التي تعرف لنفسها
حدوداً تقف عندها دون أن يعدو عليها عاد أو يرغبها أحد ، ولذا
ينبغي أن تقيد حرية العالم في وضع المصطلحات بقيود أخصها :

(أ) الحرص ما أمكن على أن يؤدي المعنى الواحد بلفظ واحد .
لأن في تعدد الألفاظ إسرافاً وارتباكاً وبلبلة . فيه إسراف ما أغنانا عنه
خصوصاً والأفكار والحقائق العلمية كثيرة ومتجددة ، ونعجز أحياناً أن
نجد لكل واحد منها لفظاً يلائمه . وفيه ارتباك لأنه يؤذن بعدم
الدقة في أداء المعنى الواحد . وفيه بلبلة لأن الترادف التام لا يكاد
يوجد ، واللفظان وإن أديا معنى واحداً يتفاوتان من بعض النواحي .

(ب) يجدر بالعالم أن يعرف جيداً لغته وما اشتملت عليه من
مصطلحات قديمة وحديثة ويتمكن منها كل التمكن . وبذا يستطيع أن
يلجأ إليها أولاً ويستمد منها ما هو في حاجة إليه من ألفاظ قبل أن
يلجأ إلى لغة أجنبية ، وفي وسعه أن يشتق من لغته وينحت ويضمن ، ويلجأ
إلى المجاز - وبابه فسيح - كي يؤدي المعنى العلمي الجديد - فلا يلجأ إلى
التعريب إلا في حالات خاصة وعند الضرورة القصوى . والتعريب

نفسه كلما أخذ عن الأصل اليوناني أو اللاتيني كان أولى .

(ج) لا تترك المصطلحات العلمية لحوى المصطلح وحده بل لابد أن يقره عليها أهل العلم والمختصون ، وإذا كانت المصطلحات هي لغة العلماء فمن حقهم أن يقولوا كلمتهم فيها . وهنا تبدو أهمية الجماعات والهيئات العلمية في تكوين المصطلحات واستقرارها .

وليست المصطلحات العلمية من وضع العالم ، وحده بل يشاركه فيها أحياناً الناقل والمترجم . ومن المترجمين من لم يتخصص فيما يترجمه ويكتفى بمعرفته للغة المنقول عنها والمنقول إليها . وقد تكون هذه المعرفة نفسها محدودة فيسيء إلى العلم والترجمة معاً . وواجب العلماء أن يراعوا هذه الترجمات ويتداركوا أخطاءها .

• • •

هذه هي المصطلحات ، وهذا هو حق العالم في وضعها . ولا يفوتني أن أشير إلى موقف المجمع اللغوي منها ، وقد نص مرسوم إنشائه صراحة على أن من أغراضه « المحافظة على سلامة اللغة وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون وتقديمها ، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر » . وكان طبيعياً أن يعنى بالمصطلحات العلمية ، وفي أضابيرها ألوف من المصطلحات في الطب والأحياء والقانون والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والرياضة والإحصاء والكيمياء والطبيعة والفلسفة والاجتماع ، وكثير من ألفاظ الحضارة الحديثة . وقد حاول نشرها فأخرج منها مجموعات ، يلي بعضها بعضاً ، وهو يخرج منها الآن مجموعة كل عام . ومنهج المجمع في معالجة المصطلحات واضح ويسير ، فهو يستمدّها من المتخصصين أنفسهم ويحرص على أن يسجل ما استقر عليه رأيهم . وسبيله إلى ذلك لجانه التي تعمل على الخبراء من أساتذة الجامعة وغيرهم ، ول هؤلاء أن يضعوا اللفظ الذي يرونه عن طريق النحت والاشتقاق ، أو النقل والتعريب ، وما ترتضيه اللجان يعرض على مجلس المجمع ثم على

مؤتمره : فإذا ما أقر بلغ للهيئات العلمية المختلفة لينال حظه من النقد والملاحظة أو التأييد والموافقة .

ولكى ييسر المجمع على العلماء مهمتهم أقر طائفة من المبادئ فيها كثير من التسامح والتجديد ، وأكتفى بأن أشير إلى أمثلة منها :

١ - فأجاز المجمع الاشتقاق من أسماء الأعيان وفتح بذلك باباً أريد به أن يغلق ، يوم أن قدّرت تلك القاعدة المشهورة من أنه لا يشتق من لفظ جامد .
٢ - وقبل المصدر الصناعي ورسم السبيل لتكوينه ، وهو أن يزداد على الكلمة ياء النسب والتاء . والمشتغلون بوضع المصطلحات يدركون ما لهذا المصدر من شأن في أداء بعض الحقائق العلمية والفلسفية ، وبخاصة في التدبير عن أسماء النظريات والمذاهب المنتهية ب Ism .

٣ - سمح بالتعريب واستعمال الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب في تعريبهم ، وقد أقر فيما عرض عليه من مصطلحات عدداً غير قليل من الألفاظ المعربة . ولا يرى المجمع ما يمنع من قبوله سواء أجهاء على أقيسة العرب أم خرج عليها .

٤ - حاول أيضاً أن يقيس فيما لم يقل بالقياس فيه ، فصاغ اسم الآلة من الثلاثي قياساً على وزن مفعول ومفعول ومفعلة ، واتخذ وزن فعالة للدلالة على الحرفة وما أشبهها من أى باب من أبواب الثلاثي ، ووافق على النسب بالألف والنون والياء إلا إن تجافى مع الذوق العربي ، كروحاني ونفساني ، وعلى دخول «أل» على حرف النون كاللاهوائي واللامائي .

٥ - ولم يفته أن يرسم طريقاً لكتابة الأعلام الأجنبية مقررّاً أنه ينبغي أن تكتب بوجه عام على حسب ما تنطق به في اللغة الأصلية ، اللهم إلا إن كان قد نطقها العرب قديماً على نحو خاص ، فيلتزم هذا النطق . ولست في حاجة أن أشير إلى أن هذه المبادئ تيسر كثيراً من أمر المصطلحات ووضعها .

شغل المجمع اللغوي إذن بالمصطلحات العلمية تسجيلاً وضبطاً وإن كان قد أصابه منها بعض العنت ، فكانت أحياناً مثار التندر والفكاهة ، وليس حديث « الإرزيز » والشاطر والمشطور وبينهما طازج « عنا ببعيد » وقد حاولت عبثاً أن أعثر لها على أصل في سجلات المجمع ، ويظهر أن واضعي بعض المصطلحات وألفاظ الحضارة يحاولون أن يعزوها إلى الخالدين رجاء أن يكسبوها شيئاً من التأيد والقداسة .

ولم يتردد المجمع في أن يعيد النظر في مصطلحات سبق له أن أقرها ، لأن العلم في حركة مستمرة . وحرص على أن يقرن المصطلح بتعريف يوضح معناه ما أمكن ، ولا يتردد في أن يرسل إلى الهيئات العلمية في الداخل والخارج ما يقره من مصطلحات ، ويرحب بما تبديه من ملاحظات ، وفي توافر هذه الهيئات ونشاطها ما يعينه على أداء رسالته .

وإذا كانت المجامع اللغوية في بلاد أخرى لم تشعر بعبء المصطلحات العلمية شعور مجمعنا ، فما ذاك إلا لأنه قامت بجانبها مجامع علمية تستعرض المصطلحات وتمحصها بحيث لا يبقى لرجل اللغة إزاءها إلا تحكيم ذوقه ثم تسجيلها .

قد يقال : وما قيمة مصطلحات يقرها المجمع ثم تبقى في أضيائه أو تنشر في مجلته ومحاضره ؟ ألا يصح أن تفكر في طريقة للإلزام وأخذ الناس بها ؟ ولا أخفى عليكم أن هذه المسألة أثرت من قبل ، ومن حسن الحظ أنه لم يؤخذ بها لاداخل المجمع ولا خارجه ، وعندى أن من يؤمن بالحرية يفضلها على كل نجاح يستطيع أن يحرزه من طريق غير طريقها ، وهو على كل حال نجاح مؤقت وسريع الزوال .

ويكفي المجمع أن يفتح الباب للدارسين وأن يسجل ما يقرون ، فهم الذين يأخذون بيد العلم وهم الذين يستطيعون أن يعدلوا مصطلحاته أو يضيفوا إليها الجديد .

نشأة المصطلحات الفلسفية في الإسلام

يقوم العلم على دعائم ثلاث : موضوع ينحصر فيه ، ومنهج يندرج البحث على أساسه ، وطائفة من القوانين والقواعد يصوب إليها ويرتكز عليها. فالبحرث غير المحدودة الموضوع ليست من العلم وإن مهدت له ، والتي لا منهج لها لا تمت إلى العلم الحقيقي بصلة . وقيمة كل علم فيما يشتمل عليه من قواعد ، وما ينهى إليه من قوانين ونظريات ، وأسسى العلوم وأرسخها أدقها قوانين وأثبتها قواعد . ويمكن أن نلخص نشأة العلوم في جهود متلاحقة ومحاولات مستمرة ترمى إلى تحديد موضوعاتها ورسم مناهجها .

والمصطلحات والصيغ جزء من المنهج العلمي ، تساعد على التخصص وتعين على حسن الأداء . وإذا كان للجماهير لغتها ، فإن العلماء يحرصون على أن يتميزوا بالألفاظ خاصة بهم ، خصوصاً وهذه الألفاظ ترمز لمدلولات دقيقة ومتشعبة ، وفي ذكرها ما يكفي لاستحضارها ، وإن لم يتفق عليها أضحى المجهود العلمي مجرد مناقشة لفظية قد لا يكون وراءها طائل . فالمصطلحات العلمية تقرب المسافة بين الباحثين ، وتوفر المجهود ، وتصرفه كله إلى تصميم البحث بلل أن يضع في حواشيه ، وتزيل كثيراً من أسباب الخلاف .

والمصطلح أيضاً قيمته من الناحية التعليمية فهو يجمع المتعلمين على دلالات واضحة ، ويسر لهم استساغة الحقائق العلمية في قولها اللفظية الثابتة . وكما يلقى النشء وشباب المتعلمين من بلبلة واضطراب حينما يحملون أنفسهم أمام مصطلحات متناقضة أو متعارضة ، تتغير من كتاب

إلى كتاب أو من أستاذ إلى أستاذ !
فالمصطلحات ضرورة علمية . ووسيلة هامة من وسائل التعليم ونقل
المعلومات .

* * *

ولم تتكون المصطلحات الفلسفية الإسلامية دفعة واحدة ، بل مرت
بأدوار عدة ونشأت نشأة الفلسفة نفسها ، فبدأت أول الأمر محدودة ضعيفة
مترددة ، فكانت تقتصر على الفاظ قليلة يؤخذ بها حيناً ثم يعدل عنها
حيناً آخر ، ولكنها ما لبثت أن نمت وترعرعت : وتعددت وتعقدت ، واختلفت
مدلولاتها باختلاف الفلسفات والفلاسفة . وإذا شئنا أن نعرف مصادرها
وكيفية تكوينها ، فجدير بنا أن نتجه إلى ناحيتين هامتين : المعتزلة من
جانب وجماعة المترجمين من جانب آخر .

ويعد المعتزلة دون نزاع المؤسسين للمدرسة العقلية الأولى في الإسلام .
بدءوا بدءاً دينياً ، ولكنهم - وقد حكموا عتقوهم وغلبوا حرية الرأي على
التسليم والتقليد - انتهوا إلى بحوث عقلية خالصة ، وأضحوا مفكرى
الإسلام الأحرار . فلامعوا بين العقل والنقل ، وفلسفوا الدين قبل أن
يعرف الفلاسفة . ووضعوا دعائم علم الكلام . أو فلسفة الإسلام الإلهية .
على أنهم لم يقفوا عند الإلهيات ، بل كانت لهم نظريات في الطبيعة
والسيكولوجيا والأخلاق ، وقضوا نحو مائتين وخمسين سنة ، من آخريات
القرن الأول الهجرى إلى منتصف القرن الرابع ، يدافعون عن الدين
ويردون شبه الزنادقة والملحدین ، وينهجون نهجاً عالياً في الجدل والمناظرة ،
ويقدمون آيات بينات في الإفحام أو الإقناع .

وليتهم استمروا جميعاً يناضلون باسم العقل وفي سبيل الدين كما صنع
معتزلة البصرة ، ولكن معتزلة بغداد أبوا إلا أن يخلطوا الدين بالسياسة ،
فاقتربوا من المأمون كل القرب ، وشاءوا باسمه أن يفرضوا على الناس
آراءهم وتعاليمهم ، وتحولت حرية الرأي في أيديهم إلى تحكم واستبداد .

ومحنة خلق القرآن أصدق شاهد على ذلك . وقد لاقى بعض المسلمين
— وعلى رأسهم أحمد بن حنبل — مالا لى بسببها من عنت وإرهاق .

بيد أن السياسة لاتكاد تعطى حتى تأخذ ولاتكاد تؤيد حتى تتخذل ،
وما إن جاء المتوكل حتى أخذ مجد المعتزلة فى الأفول : وحل الجمود
والمحافظة محل اليسر والطلاقة . ولم يقف الأمر عند هذا ، بل حمل
الناس على آرائهم فحاربوها وعلى آثارهم فأبادوها . وبذا قضوا على معظم
مؤلفات مدرسة تعد من أكثر مدارس الإسلام إنتاجاً .

وهذا فى أغلب الظن من أهم الأسباب لنقص مادتنا عن الاعتزال
والمعتزلة ، وسر ما يلحظ من قلة المصادر المباشرة فى هذه الناحية . إلا أنا
نعتمد أن نشر « كتاب المفنى » للقاضى عبد الجبار قد أضاف ثروة هامة إلى
معلوماتنا السابقة عن المعتزلة ، وبخاصة ما جاء فى كتاب « الانتصار »
للخياط وكتاب « مقالات » الإسلاميين « الأشعرى .

وفى ضوء هذه المصادر نستطيع أن نقف على كثير من المصطلحات
التي بلأ إليها المعتزلة . وكان طبيعياً أن يصطلحوا ، فقد بحثوا وأثاروا
مشكلات عدة كان لابد لهم أن يعبروا عنها ويختاروا للدلالة عليها الألفاظ
الملائمة . ولا نشير هنا إلى اصطلاحاتهم الخاصة كالعدل والتوحيد ، والصالح
والأصلح ، والحسن والقبيح العقلين ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين .
ولنما نشير إلى تلك المصطلحات التي تبناها الفلاسفة من بعدهم ، وبقيت
تردد فى المدارس المختلفة ، كالجزء الذى لا يتجزأ أو الجوهر الفرد ، والجسم
والروح ، والجوهر والعرض ، والحركة والسكون . ولهم تعبيرات تحمل
صدى أرسطو وتردد آراءه : كذاك الذى يعزى إلى أبى الهذيل العلاف فى
قوله : « الله عالم وعلمه ذاته » .

فلدى المعتزلة إذن مصطلحات فلسفية كما أن لديهم فلسفة ، وإذا
كان التفكير الفلسفى الإسلامى قد نبت على أيديهم ، فليس غريباً أن
تنبت معه الألفاظ والعبارات التي تؤديه . وأوضح ما يلحظ على هذه

الألفاظ أنها عربية خالصة ، ذلك لأن واضعيها تمكنوا من اللغة تمكناً تاماً ، فاستطاعوا أن يتخيروا لكل معنى أحسن لفظ يلائمه . وبلاغة واصل ، وأني الحذيل والنظام والباحظ كانت مضرب المثل ومبعث الإعجاب . ونكم نود أن يوضع بحث مستقل عن المصطلح المعتزلي في نشأته وتطوره .

* * *

وأما المترجمون فقد بدءوا أيضاً مهمتهم قبل أن يظهر الفلاسفة ، واستمروا يعالجونها بعد ظهورهم وعلى مقربة منهم . ولنا لندع جانباً ماحول من ترجمات في أخريات القرن الأول الهجري على يدى خالد بن يزيد وعمر بن عبد العزيز ، وبعبارة أخرى ما ترجم في عهد بنى أمية ، فقد كان محدوداً للغاية . والعباسيون هم الذين دفعوا الترجمة الإسلامية دفعة قوية ، وشاركهم في ذلك العظماء والوجهاء ، ومضت تسير في طريقها نحو قرنين أو يزيد . فاختاروا المترجمين الأكفاء وبذلوا جهوداً كبيرة في البحث عن الكتب القيمة ، وأنشؤا بيت الحكمة ليقم فيه المترجمون وتحفظ آثارهم .

وقد استوعبت الترجمة الإسلامية ألواناً شتى من الثقافة والمعرفة ، فترجمت كتب علمية وفلسفية ، وأخرى أدبية ودينية . وأفاد المسلمون من الثقافات الكبرى التي سبقتهم - شرقية كانت أو غربية - ونقلوا عن اللغات الآتية : العبرية والسريانية ، الفارسية والهندية ، اللاتينية واليونانية . ولم يكتفوا بأصل ولا ترجمة واحدة للمؤلف الواحد ، بل حاولوا أن يجمعوا له عدة أصول وأن يترجموه غير مرة كي ينقلوا إلى العربية في أدق صورة ممكنة أفكار الأمم الأخرى .

ولسنا في حاجة أن نعرض لما نعم به هؤلاء المترجمون من حظوة لدى الخلفاء والأمراء ، فقد بعثوا في طلبهم إلى جهات عدة ، وأغدقت عليهم النعم من كل جانب . ويكفى أن نشير إلى أن الرشيد أعلن في حاشيته يوماً ، أن من أراد منه شيئاً فليسال جبريل بن بختيشوع الذي

لا يرد له طلباً . ويحكى أن حنين بن إسحق كان يبيع مترجماته للمأمون بما يعادل وزنها ذهباً . ولئن كان في هذه الرواية ضرب من المبالغة ، إنما تدل قطعاً على مدى عناية الخلفاء بالمترجمات والمترجمين .

لم يقف المسلمون في البحث عن المترجمين عند جنس ولا عقيدة معينة . فكان منهم الفرس والهنود ، والصابئة واليهود والمسيحيون . غير أن هناك جهات ثلاثاً لها شأنها ، قد غزت المسلمين بكبار المترجمين وأقوم الكتب العلمية والفلسفية وأنفعها ، ونعني بها الإسكندرية وجنديسابور وحران . ففي الإسكندرية بدئت أول ترجمة في الكيمياء والطب دعا إليها خالد بن يزيد ، والكيمياء الإسلامية مستمدة في أغلبها من الإسكندرية ، والطب الإسلامي في أساسه جالينوسى أو بعبارة أخرى إسكندري ، ذلك لأن الإسكندرية قد احتفظت بمعظم مخطوطات جالينوس . ومدرسة الإسكندرية أو الأفلاطونية الحديثة ذات أثر واضح في مختلف المدارس العقلية الإسلامية ، وباختصار نعتبر الإسكندرية همزة الوصل بين أثينا وبغداد .

وأما جنديسابور فكانت مقر تلك المدرسة الطبية المشهورة التي أسسها كسرى الأول ، ومنها استمد المسلمون الكثير من أطبائهم ومترجميهم ، وخاصة آل بنخيشوع الذين كان لهم شأن يذكر في تاريخ الترجمة والطب العربى .

وأما حران فكانت ملجأ الوثنية اليونانية بعد أن أغلق جوستينيان المدارس الفلسفية في الغرب . وقد أمدت المسلمين بطائفة من العلماء والمترجمين ، على رأسهم ثابت بن قرة ، والبتانى الفلكى والرياضى ، وابن وحشية صاحب الفلاحة النبطية .

فمن هذه المدن الثلاث صدر معظم المترجمين ، وبخاصة جماعة النساطرة واليعاقبة الذين أبقوا على الدراسات الفلسفية في الشرق . ودين أن نسترسل في الحديث عن هؤلاء المترجمين وما أكثرهم ! نخص

بالذكر مدرسة لها خطرهما ، وهى مدرسة حنين بن إسحق التى قضت نحو قرن فى جمع المؤلفات القيمة المكتوبة باليونانية والسريانية ، وترجمتها ترجمة دقيقة . فقد ضمت حنيناً ، وابنه إسحق ، وابن أخته حبيشاً ، والحجاج بن مطر ، ويحيى بن البطريق ، وقسطا بن لوقا ، وفى هذه المدرسة كانت تترجم الكتب القديمة ، وتعلم اليونانية والسريانية لتلاميذ أتموا ما بدأ أساتذتهم ، فكان يترجم من اليونانية إلى العربية رأساً ، أو منها إلى السريانية ، ومن هذه إلى العربية .

وكان حنين وابنه إسحق يعرفان الفارسية واليونانية والسريانية والعربية ، وقد رحل حنين إلى القسطنطينية للبحث عن الكتب القديمة ، وقضى هناك عامين للتمكن من اللغة اليونانية ، ويصرح بأنه أعاد فى شيخوخته ترجمة ما سبق له أن ترجمه فى شبابه ، أو ما ترجمه سابقوه ومعاصروه ترجمة ناقصة ، وأنه كان يحرص الحرص كله على أن يقيم ترجمته على أصول يونانية . وإذا كان قد عنى بالترجمات الطبية ومؤلفات جالينوس خاصة ، فإن ابنه إسحق قد وقف معظم جهوده على الترجمات الفلسفية وكتب أرسطو وشروحها بوجه خاص ، فترجم ما يزيد على نصف ما عرف منها فى العربية وحرر ما سبق ترجمته منها . ولا أدل على هذا من أن الأب ألف الأسلوب الجالينوسى ، بحيث كان يستطيع الحكم على مخطوط طبي ما بمجرد قراءته أهو من وضع جالينوس أم لا . أما الابن فقد أضحى حجة فى الترجمات الفلسفية ، ويشهد لذلك ما ورد فى مخطوط ترجمة «الأورجانون» الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس ، والذى أخذنا عنه صورتين فتوغرافيتين محفوظتين بمكتبة جامعة القاهرة ، إذ يشار فيه إلى أن لإسحق ترجمة أخرى سابقة لمنطق أرسطو تسمى «المستور» ، وهى بهذا تعتبر حجة المترجمين . ويمكننا أن نقرر بوجه عام أن إسحق وأباه هما أكبر مترجمي الإسلام .

ومادنا بصدد الترجمات الفلسفية فإنه ينبغى أن نشير إلى شخصيتين

آخرين لهما أيضاً شأنهما وهما أبو بشر متى ويحيى بن عدي اللذان عاصرا الفارابي : بلى لقد تتلمذ لأولهما وكان أستاذاً للثاني . وقد أسهم هذان العالمان إسهاماً واضحاً في ترجمة الكتب الفلسفية : وإتمام ما قام به إسحق بن حنين ، وكانت لهما قدم راسخة في ترجمة الكتب المنطقية ، وكثيراً ما أشير إليهما في مخطوط « الأورجانون » الذي تحدثنا عنه من قبل .

ولقد عرف المسلمون الفلاسفة السابقين لسقراط : وأنصاف السقراطيين ، والسوفسطائيين والشكاك ، والرواقيين والأبيقوريين : إلا أنهم لم يترجموا هؤلاء جميعاً شيئاً يذكر ، ولم يستوقفهم إلا مؤلفات أفلاطون وأرسطو وما عليها من شروح ، فترجم من محاورات أفلاطون ييقين الجمهورية ، والنواميس ، وطيماس ، والسوفيست ، والسياسي ، وفيدون ، ودفاع سقراط . وعربت كتب أرسطو كلها تقريباً ، ولكي يفهم أرسطو جيداً كان لابد من ترجمة كتب شراحه ، فبدى بثيوفريستس ، وعن عناية خاصة بالإسكندر الأفروديسي أو فاضل المتأخرين كما كان يسميه ابن سينا .

ولم يقف المسلمون عند مؤلفات جالينوس الطبية ، بل ضموا إليها كتبه الفلسفية لما لها من صلة بأفلاطون وأرسطو معاً . وكان لشرح الإسكندرية أثر في تفهم النظريات الأرسطية ، بل ربما كانوا أقرب إلى المسلمين وأكثر قبولاً من الشراح القدامى وخاصة فور فوروريوس ، وثامسطيوس وسمبليقوس ، ويحيى النحوي .

وإذا ما شئنا أن نحكم على هذا المجهود العظيم ، وجدنا أن هؤلاء المترجمين قد ضموا إلى الدقة والنزاهة المقدرة العلمية واللغوية . فكانوا أمناء في نقلهم دقيقين في عملهم ، يتحرون المصادر ويشبتون منها كل الثبت . وإذا كانوا قد أخطئوا في نسبة مؤلف إلى غير واضعه ، فتلك أحوال نادرة ، على أنهم ربما انساقوا إليها تحت تأثير من سبقوهم ، كما حدث في كتاب « الربوية » الذي أثبت البحث أخيراً أنه إنما عزي إلى أرسطو

خطأ قبل الإسلام ، وعلى أيدي السريان الأول .
 وأما كفايتهم العلمية فيشهد لها أنهم لم يكونوا مجرد نقلة ، وإنما كانوا
 يلمون بالنواحي التي يترجمون فيها . وقديماً سماهم ابن النديم العلماء
 المترجمين ، وعد الشهورستاني كثيرين منهم بين الفلاسفة . وحديثاً أطلق عليهم
 البارون كارادى قولقب الموسوعيين وأصحاب دوائر المعارف Encyclopédistes .
 ويظهر أنهم لم يكتفوا بهذه الثقافة الواسعة المتشعبة ، بل شاءوا أن يضيفوا
 إليها تخصصاً في بعض المواد وبعض الترجمات . فحنين بن إسحق طبيب
 تفرغ للطب وتخصص تقريباً في الترجمات الطبية ، وبوجه أخص في
 مؤلفات جالينوس ، وابنه إسحق فيلسوف عني بالترجمات الفلسفية
 وكان له في ترجمة كتب أرسطو منزلة ممتازة ، وثابت بن قرة رياضي اتجه
 خاصة نحو الترجمات الرياضية ، وترجمته « لعناصر » لإقليدس معروفة
 مشهورة .

وقد ترك هؤلاء المترجمون من المؤلفات ما يبين نواحي ثقافتهم ،
 وبرز في وضوح مستواهم العلمي . وكان لهم شغف خاص بما سموه
 « المداخل » ، فدخل في الطب ، وآخر في الرياضة ، وثالث في الموسيقى ،
 وهكذا . وكأنهم بذلك يجارون فورفوريوس في مدخله الذي شاء أن يقدم به
 « لمقولات » أرسطو . ومهما يكن من أمر هذه المداخل ، فإنها ، مضمومة
 إلى مؤلفاتهم الأخرى ، تعد إحدى نقط البدء الهامة في الحركة العلمية
 والفلسفية في الإسلام .

وأما مقدرتهم اللغوية فتبدو فيما وصلنا من مترجماتهم ومؤلفاتهم .
 حقاً إنهم لم يتمكنوا من اللغة تمكن المعتزلة ، ولكن في أسلوبهم وضوح
 وبساطة تعين على فهم المعنى المراد . وصيغة مخطوط « الأورجانون » الذي
 أشرنا إليه من قبل سهلة مستساغة وإن لم تخل من ركافة أحياناً . والمهم أنها
 ترجمة صادقة لما كتبه أرسطو ، فقد قورنت بالأصل اليوناني وثبتت
 سلامتها ودقتها . ولقد قام برجشترامر بدراسات مقارنة من هذا النوع

فما ترجمه حنين بن إسحق ، وانتهى إلى أن هذا المترجم كان حريصاً كل الحرص على أن يؤدي الأصل الذي يترجمه أصدق أداء في اللغة العربية ، ولو أساء إلى جمال أسلوبه بعض الإساءة ، فالدقة مستوفاة وتشعر القارئ بأن المترجم متمكن من ألفاظه وتعبيراته كل التمكن . وما قيل عن حنين يمكن أن يقال عن مترجمين آخرين .

على أن هؤلاء المترجمين — كما أسلفنا — ما كانوا يعملون في انفراد ، بل كانوا متضافرين متعاونين ، ويمكن أن يقال إنهم كانوا متنافسين متسابقين يرمى كل واحد منهم إلى أن يسبق أقرانه ويقدم أصدق ترجمة ممكنة لما يوكل إليه ، فإن لم يرفق أعيدت ترجمته أو صححت ونقحت . وإحصائية واحدة كافية في توضيح ذلك . فثلاثة وعشرون شخصاً اشتركوا في ترجمة كتب أرسطو ، وكان نصفهم أو يزيد يجيد اليونانية والعربية ، وقد ترجموا له عشرين مؤلفاً ، وقدموا لها ٨٨ نصاً ، أى بمعدل أربعة نصوص أو يزيد للمؤلف الواحد ، وفي هذا ما يسمح بمقارنة وموازنة كافية .



وقد أسهم هؤلاء المترجمون إسهاماً كبيراً في تكوين المصطلحات الفلسفية إلى حد أن قسماً كبيراً مما تخبروه من الألفاظ لا يزال مستعملاً إلى اليوم . ومخطوط « الأورجانون » وهو من أقدم الترجمات الفلسفية التي وصلت إلينا يشتمل على مصطلحات منطقية لا تكاد تختلف عن المصطلحات التي استعملها الفلاسفة والمناطقه اللاحقون . ولقد حرص المترجمون على أن يستمدوا مصطلحاتهم من العربية أولاً ، فاستعاروا ألفاظاً ذات دلالات لغوية معروفة وشاعوا لها أن تؤدي معاني جديدة على طريق المجاز العرفي . وقد يلجئون إلى مصطلحات العلوم الأسبق تكويناً فيستعملون بعضها للتعبير عن بعض المعاني الفلسفية ، فلفظة « الحكم » و « القضية » مثلاً عرفنا لدى الفقهاء قبل أن نعرفها لدى المناطقه .

واشتراك مصطلحات بين علوم مختلفة أمر ملحوظ في اللغة العربية ،

وقد أشار إليه الخوارزمي قديماً في « مفاتيح العلوم » فلاحظ أن هذه الاصطلاحات والمواضيع تؤدي معاني مختلفة على حسب العلوم التي تستعمل فيها ، فالرجعة لغة المرة من الرجوع . وعند الفقهاء الرجوع في الطلاق ، وعند المتكلمين مايزعمه الشيعة من رجوع الإمام بعد غيبته أو موته ، ولهذا اللفظ دلالات أخرى عند الكتاب والمنجمين . وليس بلام أن تكون هناك صلة وثيقة بين المدلول اللغوي والمدلول الاصطلاحي ، وإن تلمست بعض الملاحظات أحياناً .

وإذا لم يجد المترجمون في العربية اللفظ الملائم مباشرة استعانوا بالنحت والاشتقاق لخلق ألفاظ تؤدي المعاني الجديدة ، وكان لهم في المصادر الصناعية فسحة كبيرة كالدوية والماهية . وقد يضمون لا النافية إلى كلمة ما ليكونوا لفظاً جديداً كاللأدرية واللانهاية . وهذا تركيب غير مألوف في اللغة العربية .

فإن أعوزتهم الألفاظ العربية لجثوا إلى اللغات الأجنبية فعربوا بعض كلماتها ، وكان نصيب الفلسفة من هذه الألفاظ غير قليل ، فعن اليونانية أخذ مثلاً هبولى ، أسطقس ، فنطاسيا ، ناموس . ومن السريانية استعيرت كلمة « ميعر » بمعنى باب أو فصل ، وسمع الكيان أو « شمعاً كيانا » ترجمة لعنوان كتاب الطبيعة لأرسطو . وأما الألفاظ الفارسية المعربة فقد استعمل منها كثير كالهندسة والجوهر . يقول الخوارزمي : « إن أكثر هذه الأوضاع (المصطلحات) أسام وألقاب اخترعت ، أو ألفاظ من كلام العجم عربت » .

وهذه الألفاظ الدخيلة تحمل ولاشك تارة الأصل الذي صدرت عنه ، ولذلك استعين بها أحياناً على كشف بعض الحقائق وتحقيق بعض المسائل . ومن ذلك ما حاوله بومشترك من التدليل على أن كتاب « الربوبية » قد نسب إلى أرسطو خطأ في السريانية قبل أن تعرف هذه النسبة في العربية .

ولم يكن المترجمون موثقين دائماً فيما تخيروا من ألفاظ ، لهذا عدل عن بعضها إلى ألفاظ أخرى ، والمصطلحات العلمية في حركة مستمرة تبعاً لتحرك العلوم أنفسها . ومن أمثلة ذلك لفظة « أوسيا Ousia » اليونانية ، فقد ترجمت أولاً بكلمة « عين » العربية ، واستمرت هذه الكلمة الأخيرة مستعملة إلى عهد الأشعرى ، إلا أنها من الألفاظ المشتركة التي لا تدل نصاً على معنى معين ، لذلك عدل عنها إلى كلمة « جوهر » الفارسية التي قدر لها أن تقضي على الأولى وتحل محلها نهائياً .

* * *

تلك في اختصار بعض جهود المعتزلة والمترجمين في تكوين المصطلحات الفلسفية ، وإذا كنا نرجع إلى هذا الماضي لتتقب عنه فما ذاك إلا لنعرفه على وجهه ونستعين به على تجاربنا الحاضرة . وفي نشأة المصطلحات الفلسفية الإسلامية دروس ما أجدرنا أن نعيد منها ، وفي مقدمتها أمور ثلاثة :

أولها - أن للترجمة شأناً أى شأن في وضع المصطلحات الجديدة واختيارها . فكلما كان المترجم متمكناً من اللغة التي ينقل عنها واللغة التي ينقل إليها كان أقدر على تغير اللفظ الملائم ، وكلما خضعت الترجمة لإشراف ومراجعة من أطراف عدة كانت أعون على نقل الأفكار الأجنبية نقلاً محكماً . وكذلك كان الشأن في الترجمة الإسلامية ، فقد كانت وليدة تضافر وتعاون ونتيجة مجهود مشترك لم يخل من تنافس وتسابق ونقد وملاحظة . وإذا كانت ترجماتنا الحديثة في أغلبها ثمرة أعمال فردية فإن في النشر ما يضعها موضع النقد والملاحظة ، وفي استعمال مصطلحاتها في التأليف والدراسة ما يصفى وينقى . لهذا ينبغي أن نلاحظ هنا جهود المؤلفين والمترجمين المعاصرين قبل أن نقر مصطلحاً من المصطلحات الجديدة . وإذا كانت مهمة المجمع في أساسها التسجيل ، فواجبنا وواجب الخبراء معنا أن يتبعوا جهود المعاصرين أولاً إن في مصر أو في البلاد

العربية ، ففي هذه الجهود ما يذلل بعض الصعاب التي تعرض لنا . ورب مصطلح مشهور ، يؤدي المعنى المراد منه بوجه ما ، خير من مصطلح جديد يخلق خلقاً وإن كان أدق في الدلالة على معناه .

ثانيها — وإذا كنا ندعو إلى تسجيل المصطلحات المعاصرة ، فنحن في حاجة أمس إلى حصر المصطلحات القديمة . والعلوم العربية ملأى بالمصطلحات التي لم تنشر ولم تعرف بعد على وجهها . وهذا تراث لا يصح أن نهمله أو نضيقه ، وقد نجد فيه ما يغنيا عن نحت أو اشتقاق أو تعريب . وما أجددنا أن نحى هذه المصطلحات القديمة ونخرجها إلى سوق التداول العلمي الحاضر !

فعند دراسة عالم أو فيلسوف إسلامي نغني بمصطلحاته بقدر مانعني بآرائه ونظرياته ، وعند نشر مخطوط أو إعادة طبع كتاب قديم نأخذ أنفسنا بإبراز ما فيه من ألفاظ فنية ومصطلحات . إننا فعلنا أحيانا معالم تراثنا القديم وكشفنا عما فيه من ثروة ، ويسرنا على المشتغلين بالعلوم الحديثة تخير ما يلائمها من مصطلحات .

وأخيراً — رسم لنا مترجمو الإسلام سنة صالحة في الأخذ بها توفيراً للجهل وقضاء على بعض أسباب التعارض والاضطراب . وذلك أنهم اتقوا ما استطاعوا الإسراف في وضع المصطلحات الجديدة ، فكلما وجدوا اللغة العادية قادرة على أداء معنى من المعاني اكتفوا بها ، ولم يبحثوا عن مصطلح خاص . وبذا وقفت اصطلاحاتهم عند النظريات الكبرى والقضايا الثابتة ، فقلر لها أن تحيا وأن يؤخذ بها إلى اليوم . أما أن يوضع لكل فكرة لفظ جديد ، ولكل معنى مصطلح خاص ، ففي هذا ما فيه من الإثقال والبلبلة ، خصوصاً إذا كان من اليسير أداء هذا المعنى باللغة العادية . وهذه ملاحظة لها شأنها فيما نعانیه من آراء ونظريات حديثة ، إن في الكيمياء والطبيعة أو في علم النفس مثلاً . فمن بين هذه النظريات ما لم يستقر بعد ، ومن هذه الآراء ما لا يزال موضع خلاف بين الباحثين . وقد لا يلتزم أصحاب هذه

الآراء التعبير عنها بألفاظ ثابتة بل يغيرونها بتغير المواطن والكتب .
 فمن العبث إذن أن نتعجل نحن ، فنقف على أمثال هذه الآراء ألفاظاً خاصة
 مع أنه قد يقضى عليها بعد حين . وما أشبه هذا بالبحث عن الكمال
 في الوقت الذي لا نجد فيه السبيل إلى الضروري !
 ومن الإسراف أن نأخذ عالماً أو فيلسوفاً ما ، فنحاول أن نغلب
 مصطلحاته على الآخرين مع أنه لا يمثل إلا حلقة واحدة من حلقات
 التفكير الكثيرة في مادة ما ، وقد لا يكون رأيه المعتد به اليوم . وفي هذا
 مافيه من التعصب وضيق الأفق ، فلنضع مصطلحاتنا بقدر ، ولنقف عند
 الآراء الثابتة والنظريات المستقرة خشية أن ننغمس في ترف لا جدوى لنا
 منه الآن .

المصطلحات العلمية المعاصرة^(١)

١ - المصطلح جزء من المنهج العلمي ، ولا يستقيم منهج إلا إذا قام على مصطلحات دقيقة تؤدي الحقائق العلمية أداء صادقاً ، وقديماً قالوا : « العلم لغة أحكم وضعها » . وبالمصطلح يستحضر المعنى بأيسر وسيلة ، ويقرب إلى الأذهان . وبه يستعان على التعلم ، ويتفاهم العلماء . وقد لاحظ ليبتز بحق أن اختلاف العلماء يرجع في قدر كبير منه إلى خلاف على مدلول الألفاظ .

والمصطلح لغة خاصة ، تسير بسير العلم ، وتقف لوقوفه . ولم تنشط هذه اللغة قط نشاطها اليوم ، ذلك لأن العلوم في حركة دائبة . وتاريخ العلوم إلى حد ما تاريخ لمصطلحاتها ، وهو وثيق الصلة بتاريخ الأدب واللغة . ويوم أن ازدهر العلم اليوناني ، ازدهرت معه اللغة والأدب ، ورأينا في أثينا لغة علمية إلى جانب اللغة الأدبية في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . وفي بغداد اقترنت النهضة الأدبية بنهضة علمية في القرنين الرابع والخامس للهجرة وفي باريس وصل الأدب الفرنسي إلى قمته في القرنين السادس عشر والسابع عشر يوم أن اتسعت آفاق البحث والدراسة العلمية .

(١) مترجم مع اضافات عن بحث بالانجليزية ألقى في مؤتمر المشرقين

بنيودلهي عام ١٩٦٤ .

والعالم كامل الحرية في اختيار اللفظ الذي يرتضيه لأداء الحقيقة العلمية المستمدة من التصحي أو من العامة ، ويستعين عليه باللغات . الحية أو الميتة . وقد يشكو من قصور اللغة وعجزها عن أداء ما يريد ، ويلجأ إلى الأرقام أو الرموز كما صنع في الرياضة والكيمياء . وكثيراً ما شكوا اللغويون من تهجم العلماء على اللغة . وعابوا عليهم الاشتقاق على غير قاعدة . والنحت بلا داع ، والتعريب دون حاجة . وممن اللغة عزيز على أهله دائماً ، وقد يتسامحون في خطأ نحوي أحياناً ، وقل أن يغفروا لفظاً دخيلاً . وربما كانت آفة اللغة من النقلة والمترجمين أكثر مما هي من العلماء والمختبرين .

٢ - وقد نشأ العلم في الإسلام منذ عهد مبكر . فكان الصحابة يتعلمون الكتاب والسنة ، وجدّوا في جمعها وتدوينها . ودرسوها من نواح مختلفة ، وحولها قامت علوم الدين واللغة . وما إن حل القرن الرابع الهجري حتى تحدد موضوعها ، واتضح منهجها ، وتكونت مصطلحاتها ، وأضحى لكل علم مصطلحاته الخاصة ، كمصطلحات الكلام والفقه والنحو .

ولم إلى جانب العلوم النقلية قامت علوم عقلية ، ازدهرت بدورها في القرنين الرابع والخامس للهجرة . فتدارس المسلمون الطب والكيمياء ، والفلك والطبيعة ، وأقاموا المعامل والمراصد ، وانتهوا إلى كشف لم يسبقوا إليها . وكانت لهم لغة علمية متجددة ومتنوعة ، وإذا لم يؤد مصطلح معناه أداء كاملاً عدل عنه إلى ما هو أدق وأضبط ، وما يؤسف له أن هذه اللغة كثيراً ما غابت عن بعض الباحثين المعاصرين .

لم يتكون المصطلح العربي القديم دفعة واحدة ، بل قضى زمناً ينمو ويتطور . ولم يبال واضعوه بأن يكون المصطلح عربياً أصيلاً أو معرباً دخيلاً . وربما آثروا اللفظ الأجنبي إذا كان أدخل في المعنى وأكمل

في الأداء . فترجمت مثلاً كلمة Ousia اليونانية في البداية بلفظ «عين» بالعربية ، ثم عدل عن هذه لشيوعها إلى كلمة «جوهر» الفارسية الأصل . وكثيراً ما يحمل التعريب شارة المصدر الذي نقل عنه ، فتلاحظ الألفاظ الفارسية في مستحدثات الإدارة والحضارة ، واليونانية والسريانية في العلوم الفلسفية والطبيعية . وقد ثبت المصطلح العلمي واستقر بحيث تنوسى معناه الأول ، ولم يفهم إلا في مدلوله الجديد . وسجلت المصطلحات في معجمات خاصة ، وتوفر للعرب منها عدد غير قليل . ويكفي أن نشير إلى « مفاتيح العلوم » للخوارزمي ٩٧٧م ، و « كشف اصطلاحات الفنون » للتهانوي (١٧٤٥م) .

وأبى المصطلح العربي إلا أن يغزو ثقافات أخرى ، فنقلت منه ألفاظ إلى اللاتينية حين أخذ المدرسيون ينقلون عن العربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ونعمر الفارسية والتركية والأردية بسيل منه ، ولا تزال هذه اللغات تردد مصطلحات عربية خالصة . وربما استطاعت أن تفيد من المصطلح العربي الحديث ، كما أفادت من المصطلح القديم .

٣ - ويوم أن ركذ البحث العلمي ركذت لغته معه ، فأهملت المراسد في العالم العربي ، وجمدت المصطلحات . فلا تجديد فيها ولا ابتكار ، ولا حياة ولا قوة . وردد الحلف ألفاظاً وصيغاً قال بها السلف ، وأضحت اللغة العلمية ركيكة معقدة .

ثم جاءت النهضة العربية الحديثة على فترة من البحث والدراسة ، ويظهر أن رجالها الأول في القرن التاسع عشر لم يكونوا على علم بماضيهم ، ولا على صلة بعلومهم ومصطلحاتهم القديمة . فلم يستفيدوا كثيراً من هذا التراث ، وأخلدوا يؤدون الحقائق العلمية أداء لا يخلو من تعجل وخطأ . وقد وضعوا في أخريات القرن الماضي بعض المعجمات العلمية التي تحمل طابعاً عاماً وأجنبياً واضحاً .

وكان على أبناء القرن العشرين أن يتداركوا هذا النقص ، وينهضوا

باللغة العلمية نهوضهم باللغة الأدبية . وكان عليهم خاصة أن يتابعوا سير العلم في العصر الحاضر ، ولم تستحث خطاه قط بقدر ما تستحث اليوم . وأضحت المصطلحات العلمية في نمو مطرد وتجديد لا ينقطع ، ولما في اللغات الأوربية معاجم تزداد وتستكمل عاماً بعد عام . وفكر في إنشاء المجامع اللغوية ، وأريد بها أن تسهم بنصيب في إحياء المصطلح العربي ونهوضه .

٤ - لمجمع اللغة العربية ، الذي أنشئ بالقاهرة في أول العقد الرابع من هذا القرن ، شأن في نهضة المصطلحات العربية المعاصرة ، ومن أهم أغراضه « أن يجعل اللغة وافية بمطالب العلوم والفنون » . وقد شغل بذلك منذ قيامه : محاولاً إحياء المصطلح القديم إن كان ثمة سبيل إلى إحيائه ، أو البحث عن مصطلح جديد يكون أنسب للمعنى وأدل عليه . وأعد للمصطلحات أجهزة خاصة من خبراء ومحررين ولجان متعددة ، وحرص على أن يتأني في الدرس والمراجعة . فيعرض للمصطلح في بلانه ، ثم في مجلسه ومؤتمره ، ولا يتردد في أن يعيد النظر فيه إن دعا الأمر .

ويؤمن بأن مهمته الأولى أن يسجل ما اصطلاح عليه المختصون ما دام لا يتعارض مع أصل من أصول اللغة ، ويدعو إلى جمع المصطلحات العربية القديمة ، وإن كان يرى أنها أصبحت لاثني بالحاجة . ولا يتردد في أن يعرب كما عرب قديماً ، فأخذ عن اليونانية والهندية ، والسريانية والعبرية ، والفارسية والتركية ، وكما عرب حديثاً عن الإسبانية والإيطالية ، والإنجليزية والفرنسية . والعامة في قسط كبير منها فصيحة الأصل ، ولا ضير أن نستعين بها في صوغ المصطلح الجديد .

وتوسع في الاشتقاق والقياس ، فأجاز مثلاً الاشتقاق من أسماء الأعيان والخواهر ، فيقال مكهرب وممغنط من الكهرباء والمغنطيس ، كما قيل قديماً مفضض ومنهب . وقال بقياسية المصدر الصناعي . وكان مقصوداً من قبل على السماع ، فيقال المثالية والكانطية ، كما قيل قديماً الجبرية والقدرية .

وحاول أن يقيس أوزاناً فيما لم يقل بالقياس فيه لأداء دلالات خاصة ،
 كالحرقة والداء والصوت . وأجاز النسب إلى جمع التكسير ، وكان مقررأ
 ألا ينسب إلا إلى مفرد ، ودخو «أل» على «لا» النافية كالألهوائى واللامائى .
 ورسم للتعريب ضوابط تنظمه : فيعرب خاصة ما يدل على أسماء
 الأعيان وأعلام الجنس كأكسجين والكثرون ، وما يدل على تصنيف عام
 من أجناس وأنواع فى النبات والحيوان أو سلسلة مواد متشابهة فى الكيمياء ،
 وما ينسب إلى علم من اسم شخص أوامم مكان . وينبغى ترجمة ما وراء
 ذلك من الكلمات التى أخذت من اللغة العادية لأداء معان علمية .
 ويحتفظ فى التعريب بالأصل ما أمكن ، ويؤخذ بأقرب نطق إلى العربية ،
 ويشكل المصطلح العرب ضبطاً لنطقه .

ويرى أن يؤدى المعنى الواحد بلفظ واحد ، وأن يكون هذا اللفظ
 واضحاً دقيقاً ، صالحاً للاشتقاق والنسبة إليه ، مع تجنب الغرابة والابتذال .
 ويختص كل علم بمصطلحاته ، وقد يستعمل اللفظ الواحد فى معان مختلفة
 باختلاف العلوم ، على أن توحد المصطلحات المشتركة التى لا تتغير
 دلالتها من علم إلى علم .

واستطاع بهذا أن يقر آلاف المصطلحات فى العلوم المختلفة ،
 وأخرج منها كراسات ومجموعات متلاحقة ، ويحرص فى السنوات الأخيرة
 على أن يخرج كل عام مجموعة تشتمل على ما يقره مؤتمره السنوى ، وتبلغ
 فى المتوسط نحو ألفى مصطلح ، وفى هذه المجموعات عون للدارسين والباحثين ،
 وفيها نواة صالحة للمعجمات العلمية .

٥ - وتحظى المصطلحات العلمية اليوم بعناية خاصة من المؤلفين
 والمترجمين ، وفى ربع القرن الأخير نشاط ملحوظ فى التأليف والترجمة
 العلمية . دعت إليه حاجة التعليم العام والجامعى ، والرغبة الأكيدة فى
 نشر الثقافة . وفى العربية اليوم مؤلفات علمية حديثة متعددة ومتنوعة ،
 وربما ألحق بالمؤلف ثبت بما ورد فيه من مصطلحات ومقابلها الأجنبى .

وبدئت محاولات في وضع معجمات مصطلحات عربية في بعض العلوم .

ولانزع في أن الدراسة الجامعية ، وهي تنتشر وتتولد في العالم العربي عداً بعد عام ، ستدفع هذا التأليف قداماً وتوفر كتباً علمية للخاصة ، وأخرى للثقافة العامة . وللدراسة الابتدائية والثانوية كتبها العلمية التي يرجى أن توحد في البلاد العربية . وهناك مؤسسات للنشر والتأليف والترجمة ، وهي تغذي القارئ العربي بغذاء لا ينقطع من العلم والفن .

٦ - وبرغم هذا ، لا يزال المصطلح العلمي المعاصر قلقاً ودون الحاجة . فيه بلبلة واضطراب في الحديث والكتابة . فيختلف من بلد إلى بلد ، بل من مؤلف إلى آخر . يصطلح العلماء أحياناً ، كل كما يرى ، ويترجم المترجمون على أنحاء مختلفة . وتباينت النهضة العلمية ، بدءاً ومؤثرات ، من بلد إلى بلد ، فبينما يلحظ مثلاً أن العراق والسودان أكثر تأثراً بالثقافة الإنجليزية ، إذا بشمال إفريقية تغلب عليه الثقافة الفرنسية ، وربما اجتمع في بلد واحد أكثر من تيار ثقافي ، كما هو الشأن في مصر .

وتبذل جهود شتى لتوحيد المصطلح العلمي في البلاد العربية ، عن طريق المجامع اللغوية تارة والمؤتمرات العلمية تارة أخرى . وتسهم الجامعة العربية في ذلك إسهاماً فعالاً ، فتعقد لجاناً للمصطلحات تمثل فيها البلاد المختلفة ، وتنظم المؤتمرات ، وتشجع الاتحادات العلمية . وفي وسعها أن تقود حركة ثقافية عربية شاملة ، وربما كانت أعمق وأنجع مما يعالجه اليونسكو في النطاق الدولي . والعالم العربي اليوم في اتصاله الفكري والثقافي لا بد ملتق عند مصطلحات علمية وفنية واحدة ، وقد خطا بالفعل خطوات فسيحة في سبيل توحيد المصطلح العلمي . وبرهنت العربية على أنها ليست أقل استجابة لمقتضيات العلم من أية لغة أخرى ، وكم من مصطلح عربي ألصق بمعناه وأدق في دلالاته من مصطلح أجنبي .

الباب الثالث

في المعجمات

فن المعجمات

نشطت الدراسات اللغوية نشاطاً ملحوظاً منذ قرن أوزيريد ، تنوعت وتشعبت ، ظهرت فيها تيارات مختلفة واتجاهات متعددة . فدرست اللغة على أنها إحدى الظواهر الاجتماعية ، تنبعث من المجتمع ، تسير بسيره وتتوقف لوقوفه ، تتأثر ببيئته الجغرافية ونظمه السياسية ، تتلون بلون علمه وفنه ، تفصح عن آرائه ومعتقداته ، تعبر في اختصار عن مظاهر حضارته ومدنيته ، ومن هنا نشأ « علم الاجتماع اللغوي » . ودرست أيضاً على أنها ظاهرة نفسية ، تؤدي بالرمز والإشارة تارة ، أو بالصوت والحرف تارة أخرى . وهي في هذا كله إنما تعبر عن خلجات نفسية ومعان ذهنية ، فتبرز ما يجول في الخاطر من شعور ووجدان ، وخيال وتصور ، ونزوع وإرادة ، وحكم واستدلال ، ونشأ عن ذلك ما يسمى « علم النفس اللغوي » .

وزادت الدراسات اللغوية الخالصة نماء وخصباً ، فدرست اللهجات قديمها وحديثها ، جمعت مفرداتها وتراكيبها ، كشفت عن نحوها وصرفها ، قورن بينها ، ربط بعضها ببعض ، وضحت الصلة بينها وبين اللغة الأم ، استعين بها على فهم الفصحى وتغذيتها ، وأصبح « علم اللهجات » من أهم فروع علم اللغة العام . عني كذلك بالأصوات والحروف ومخارجها ، فين ما تعتمد عليه من أعضاء النطق ، وما تختلف فيه من همس ونبر ، وقصر ومد ، ولين وسكون ، قيست بأقيسة دقيقة واستخدمت فيها أجهزة خاصة ، أسست من أجلها معاهد ومعامل ، وكل ذلك دعامة ما يسمى « علم الأصوات » . بحث أيضاً معاني الكلمات في صورها

المختلفة ، وأريد تلمس علاقة بين الحروف ومدلولها ، وظن أن الكلمة تدل بلفظها على شيء من معناها ، وجملة هذا ما يسمى « السيمية » أو « علم الدلالة » . ويدخل فيه البحث في مدلولات الكلمة الواحدة ، واختلافها باختلاف الاستعمال ، وتتبعها في تصريفها واشتقاقها ، وتطورها بتطور العصور ، وهذا هو « فن المعجمات » الذي نود أن نقف عنده قليلا .

* * *

ليس هذا الفن ابن اليوم ، بل يرجع إلى التاريخ القديم ، عرف منذ عهد بعيد ، ثم أخذ ينمو ويتطور على مر الزمن ، وكان للقرن الماضي شأن كبير في نهوضه وتقدمه ، وأصبحنا أمام فن حديث للمعجمات ، اتضحت أصوله ومبادئه ، وتوفرت أدواته ووسائله ، وتنوعت مسبله ومناهجه . ولا يعد من المعاجم في شيء كل مؤلف لا يأخذ بهذه المبادئ أو يخرج عليها .

وقد وضعت في التاريخ القديم معاجم في اليونانية واللاتينية ، وما يؤسف له أن فقد معظمها ، ولم تظهر منها إلا بشذرات متفرقة . ووضعت في القرون الوسطى أيضاً معاجم يونانية ولاتينية ، وصلنا منها قدر لا بأس به . ولكننا نستطيع أن نقرر أن ليس ثمة لغة قديمة — ولا حديثة — توافرها ما توافر للعربية من معجمات . بدى في وضعها منذ آخريات القرن الثامن الميلادي ، وتوالت العناية بها إلى اليوم . ولا يكاد يخلو قرن من معجم عربي جديد ، وهناك قرون ظهر فيها عدة معاجم . ونظما العرب في فن المعجمات خطوات فسيحة فاقوا بها الإغريق والرومان ورجال القرون الوسطى ، وأثروا في معجمات عصر النهضة والتاريخ الحديث . إلا أن هذا الفن لم يتوقف واستمر ينمو ويتطور حتى بلغ قمته في القرن التاسع عشر ، وظهرت آثاره واضحة في بعض المعجمات

الأوربية الكبرى ، كمعجم « لاروس » فى الفرنسية ، و « أكسفورد » ، و « ويستر » فى الإنجليزية .

ويمكن أن ترد النهضة المعجمية إلى عوامل ثلاثة أساسية : عناية بالغة بالوضوح والترتيب ، أخذ بالمنهج التاريخى ، توسع فى الطابع الموسوعى . والمعجم أداة بحث ، ومرجع سهل ، فينبغى أن يكون واضحاً ، دقيقاً ، محكم التبريب . والتبريب دعامة أولى فى وضوح التأليف المعجمى ، وقد مر بأدوار مختلفة ، يكفى أن نشير منها إلى تبريب المعجم العربى . بدأه الخليل بن أحمد بترتيب « كتاب العين » على حسب مخارج الحروف ، كما صنعت الأكاديمية الفرنسية بعده بنحو عشرة قرون فى أول طبعة لمعجمها ، بدأ بالحروف الحلقية ، وانتهى بالحروف الشفوية . ورأى الجوهري إيراد الكلمات المعجمية مرتبة على حسب أواخر أصولها ، وحاول آخرون اعتبار الحروف الثلاثة الأولى من الكلمة أساساً لترتيب مواد المعجم . وكل ذلك لا يخلو من تعقيد ، ويتطلب إلماماً بالتصريف والاشتقاق . وأبسط الأمور أن ترتب الكلمات على حسب نطقها لأعلى حسب تصريفها ، وهذا ما انتهى إليه فن المعاجم الحديث ، ومن اليسير تطبيقه على العربية وإن تكن لغة اشتقاق . وما يزيد المعجم وضوحاً جلاء شروحه وتعاريفه ، فتكتب بلغة سهلة ، وتصاغ فى عبارة دقيقة . ولا شك فى أن الرسوم والصور واللوحات الهندسية والجغرافية من خير وسائل الإيضاح ، وتعد اليوم ركناً هاماً من أركان التأليف المعجمى .

ولالألفاظ تاريخ ، كالأفكار والأشياء ، فيبحث عن أصولها ، ويتتبع تطورها ولا يقف هذا التاريخ عند عصر ولا يحدد بجبل ، وربما قام التأصيل اللغوى على فروض غير جازمة ، ولكنه باب طريف من أبواب الدراسة اللغوية المقارنة . ويبدو تطور الألفاظ فى استكمال صقلها ، وشيوع استعمالها ، واختلاف مداها باختلاف العصور ، ويحرص

اللغوى على تتبع ذلك : والوقوف على مراحلها ، وتوضيحه في ضوء ما ورد من شعر ونثر ، والكشف عن الألفاظ والتعابير المهمة والمستعملة . ولا بد له أن يتذرع لهذا بالصبر والجلد ، وأن تتضافر عليه جهود كثيرة . ومعجم « أكسفورد » من أوضح الأمثلة على المعاجم التاريخية ، ولعل في قصر عمر اللغة الإنجليزية نسبياً وتحدد مصادرها ما أعان على ذلك .

ومن المعجمات القديمة ما لم يقف عند المادة اللغوية ، بل جاوزها إلى سرد معلومات في التاريخ والجغرافيا والعلم والفلسفة ، إلا أنها تذكر في الغالب استطراداً ، وفي غير ما تحر ولادقة . ويراد بالمعجم الحديث اليوم أن يرتب ذلك ويعرضه في أضبط صورة وأحدثها ، فيقدم ألواناً من المعرفة وضروباً من العلوم والفنون تحت أسماء المصطلحات الخاصة بها . والمصطلح العلمى جزء من اللغة ولا شك ، وفي شرحه يلجأ في معجم لغوى شرحاً دقيقاً ما يسعف الباحث وما قد يغنى عن الرجوع إلى المصادر المطولة . ويعرض المعجم أيضاً لأعلام الأشخاص والأماكن ، فيعرف بها في اختصار ، ويبين منزلتها في تاريخ الفكر الإنسانى . وقد يختلف في ذكر هذه الأعلام ، فحرمته الأكاديمية الفرنسية على نفسها في معجمها ، وأخذت به معجمات أخرى . ونعتقد أن هذا الطابع الموسوعى إنما كان أثراً من آثار انتشار دوائر المعارف في القرن التاسع عشر والتعلق بها ، ومن أوضح الأمثلة عليه « معجم لاروس » في الفرنسية . وإذا كان المعجم يوضح الألفاظ ، ودائرة المعارف توضح الأشياء ، فإن الأسماء ومسمياتها متصلة ومختلطة . وقد قيل : « إن المعجم هو الكون مرتباً ترتيباً هجائياً » .

* * *

وبدا انقضى الزمن الذى كان يقف فيه التأليف المعجمى عند مجرد تلخيص ما ورد في معجمات سابقة أو جمعه ، ولا بد له من أدوات ووسائل شتى ، فيزود بمكتبة حافلة في الأدب واللغة والعلم والفن ، تجمع

بين القديم والحديث، وتتوافر فيها كل المصادر . ويؤخذ فيه بنظام
الجزازات أخذاً محكماً : فتعد بحيث تقبل الحذف والزيادة ، وترتب
وتبويب : وتحفظ في أحراز أمينة . ولا بد أن تضطلع به كفايات متخصصة،
وتتضافر عليه خبرات متعددة : فيسهم فيه اللغوي والأديب : والعالم
والفيلسوف ، والمؤرخ والجغرافي، ويكونون من بينهم جهازاً دائماً ، وخبراء
ومراسلين يستعان بهم عند الحاجة . وليس ثمة دار من دور المعجمات
الكبرى إلا وفيها هذا الجهاز المنظم المنسق ، به تنتج ، وبه تتابع
وتراجع ماسبق لها أن أنتجته . والتأليف المعجمي طويل المدى ، فلم
تخرج الأكاديمية الفرنسية معجمها إلا بعد نحو مائة سنة ، ووقف ليريه
ثلاثين سنة من عمره على معجمه ، ولم يكمل « معجم أكسفورد »
إلا في نحو ٧٠ عاماً . وحياة هذا التأليف في رسم خطته واستكمال
أجهزته .

المعجم العربي في القرن العشرين^(١)

١ - قد لا يكون ثمة لغة توافر لها من المعجمات ما توافر للعربية . وإذا تركنا جانباً تلك الرسائل الصغيرة التي ظهرت في القرن الأول للهجرة ، وجدنا الخليل بن أحمد قد افتتح عصر المعجمات الكبرى في القرن الثاني بوضعه « كتاب العين » . ثم تنافس الباحثون من بعده في وضع معجمات متلاحقة ، من أحجام مختلفة وفي تبويب متنوع . ولا يكاد يخلو قرن من ظهور معجم عربي جديد ، وهناك قرنين ظهر فيهما عدة معاجم ، ويمكننا أن نذكر من بينها القرن الرابع الذي يعد بحق القرن الذهبي للمعجم العربي ، فقد ظهر فيه « الجمهرة » لابن دريد (٣٢١) ، و « التهذيب » للأزهري (٣٧٠) ، و « المحيط » للصاحب بن عباد (٣٨٥) ، و « المجمل » لابن فارس (٣٩٥) ، و « الصحاح » للجوهري (٣٩٧) . ووصل إلينا معظم المعجمات القديمة عن طريق مباشر أو غير مباشر ، وبين أيدينا اليوم قلر لا بأس به ، نصدر عنه ونعول عليه ، ومنه ما ترجم إلى بعض اللغات الأوروبية .

وفي التاريخ القديم معجمات يونانية ولاينية ، ولكنها لم تبلغ مبلغ المعجمات العربية ، ولم يصلنا منها إلا شذرات صغيرة ، وأقدم معجم يوناني أو لاتيني عرفناه يصعد إلى القرون الوسطى ، ويعد عصر النهضة بوجه خاص نقطة بدء هامة في تاريخ الدراسات اللغوية . ولم توضع معجمات

(١) مترجم يتصرف عن بحث أتي بالفرنسية في مؤتمر المشرقين بموسكو

في اللغات الأوربية الكبرى إلا في عهد متأخر ، ففي إنجلترا مثلاً لم تظهر الإنجليزية في المعجم إلا لخدمة اللاتينية حتى القرن السادس عشر . وفي القرن السابع عشر بدى في وضع معجمات للغات الأوربية الحديثة ، وأخذ فن المعاجم ينمو ويتطور . فعنى بترتيب المواد وتحديد مدلول الألفاظ ، وألفت معجمات كبيرة وأخرى صغيرة ، في لغة واحدة أو في عدة لغات ، وامتد تصنيفها إلى الفلسفة والعلوم ، فوضعت معجمات في التاريخ والجغرافيا والحيوان والنبات . وبلغ هذا الفن القمة في القرن التاسع عشر ، الذي ظهر فيه معجم « لثريه » و « لاروس » في الفرنسية ، و « أكسفورد » و « وبستر » في الإنجليزية ، و « أدلونج » في الألمانية ، ومعجم « أكاديمية سان بطرسبورج » في الروسية .

٢ - ولا نزاع في أن المعجمات العربية القديمة غزيرة المادة ، تؤذن باطلاع واسع ومجهود عظيم . ولها قيمة تاريخية لا تنكر ، وستبقى معينا لا ينضب في بيان أصول الكلمات وشرح الألفاظ الغريبة والعبارات الغامضة . إلا أنها تشتمل على بعض العيوب المشتركة ، فتخطئ أحيانا في ضبط الكلمات ، وتسرف في سرد المترادفات ، وفي تعريفاتها غموض وفي معلوماتها خلط ، وخاصة حين تجاوز اللغة إلى بحوث في التاريخ والجغرافيا ، أو الكيمياء والطبيعة .

ونشير خاصة إلى منهجها والأساس الذي قامت عليه ، فهي تضيق دائرة اللغة ، ولا تكاد تسلم إلا بما أخذ عن البادية ، تقبل لغة الجاهلية وصلح الإسلام ، وتنكر ما عداهما ، وتقف بالاحتجاج عند القرن الثاني للهجرة . فتهمل عصور اللغة الأخرى ، ولا تعبر عن العصر الذي وضعت فيه ، وكأنما تغفل قانون التطور الذي يقضى بأن تتابع اللغة سير المجتمع الذي نعيش فيه . فيها حشو وتكرار ، وكثيراً ما أخذ لاحقها عن سابقها في غير ما تعديل ولا تصرف . ويعترف ابن منظور صاحب « اللسان » ، أكبر معجم وصلنا ، بأنه لم يفعل شيئاً أكثر من أنه جمع « تهذيب »

الأزهري و « صحاح » الجوهري ، و « محكم » ابن سيده ، و « حواشي » ابن بري على الصحاح ، و « النهاية » لابن الأثير . وما أخرجنا إلى درس المعجمات العربية القديمة درساً مقارناً ، يبين مدى تسلسلها وتأثير بعضها في بعض .

والمعجم أداة بحث ، ومرجع سهل المأخذ ، فينبغي أن يكون واضحاً ، ودقيقاً ، مصوراً ، محكم التبويب ، مما لا يتوافر كثيراً في معجماتنا القديمة ، ففي الرجوع إليها عناء ، وفي عرضها حشو . حقاً إن ترتيب موادها تطور مع الزمن ، فروعى فيه أولاً تدرج الحروف في أصواتها ومخارجها ، على نحو ما حدث في الطبعة الأولى من معجم الأكا ديمية الفرنسية . ثم عدل عن هذا إلى ترتيب هجائي تلاحظ فيه أواخر الكلمات أو أوائلها ، وكل ذلك لا يخلو من تعقيد ، ويتطلب الإلمام بالتصريف والاشتقاق قبل الرجوع إلى المعجم . وهي أيضاً محشوة باستطرادات يضل الباحث في ثناياها .

٣ — وقد لوحظ هذا من قديم ، وأريد تداركه . ودون أن نعرض لآراء القدامى نكتفي بأن نشير إلى ملاحظه فارس الشدياق في أخريات القرن الماضي ، ودعاه إلى وضع « الجاسوس على القاموس » . وتابعه في هذا عالمان لبنانيان آخران ، عنيا بالمعجم العربي ، وشاءا أن يخرجاه في ترتيب أيسر ، متأثرين في الغالب بالمعجم الأوربي ، وهما البستاني صاحب « محيط المحيط » الذي رتب موادَه ترتيباً هجائياً سهلاً ، واقتصد في الشواهد والنصوص ، والشرتوني صاحب « أقرب المارد » الذي قدر له رواج أكبر من سابقه ، وهو أحكم ترتيباً وأقل استشهاداً .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل بذلت جهود أخرى في القرن العشرين ، وعنى خاصة بالمعجمات الصغرى . ذلك لأن ما وضع منها قديماً « كمختار الصحاح » ، و « المصباح المنير » لا يخلو من صعاب ، وقد عوّلت عليهما المدرسة الثانوية المصرية منذ أوائل هذا القرن ، ولم تلبث أن كشفت عما

فيهما من نقص . وفي لبنان أيضاً أخرج الأب لويس المعلوف اليسوعي « المنجد » وهو معجم صغير سهل التناول . ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٠٨ وتوالت بعدها عدة طبعات : فظهرت الخامسة منقحة ومزودة عام ١٩٢٧ وتلتها السادسة عام ١٩٥٦ : وفيها قسم جديد للأدب والعلوم . ولا شك في أن « المنجد » محاكاة صادقة لمعجم « لاروس الصغير » : فهو ميسر التبويب ، سهل المأخذ . مزود بوسائل الإيضاح من لوحات ورسوم وصور .

بيد أن هذه المحاولات على اختلافها لم تستطع أن تتخلص من سلطان الماضي ، وبقيت خاضعة له خضوعاً تاماً : فلم تصنع شيئاً أكثر من أنها جمعت ما ورد في المعجمات القديمة ، أو لخصته في شيء من الوضوح والترتيب . ولم تجرؤ واحدة منها على أن تعرض للغة المعاصرة ، ولا لما يتخاطب به الناس اليوم من ألفاظ العلم والحضارة .

٤ - وكان طبعياً أن يضطلع مجمع اللغة العربية بذلك ، ونص مرسوم إنشائه على أن من أهم أغراضه : « أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية » . وقد أخذ نفسه بذلك منذ البداية ، وكون في الدورة الأولى لجنة المعجم من كبار اللغويين العرب والمستعربين ، وحاولت هذه اللجنة رسم الخطة وتحديد معالم المعجم العربي في القرن العشرين . وكان من بين أعضائها المستشرق الألماني الدكتور فيشر الذي عني بالمعجمات العربية منذ آخريات القرن الماضي ، ورغب في أن ينهج بها نهجاً جديداً . وقد نشر فكرته لأول مرة في مؤتمر عقد ببال سنة ١٩٠٨ ، واستمر يتعهدا إلى أن أصبح عضواً في مجمع اللغة العربية عام ١٩٣٤ . وكان يرى إلى وضع معجم مستمد من النصوص القديمة ، يوضح مختلف المعاني والاستعمالات للألفاظ والعبارات ، ويتتبع تطورها ، ويعرض في اختصار تاريخها . ولم يتردد المجمع في أن يوفر له أسباب البحث والدرس ، وأن يتعاقد معه على نشر معجمه الذي كان يأمل أن يخرج في ست سنوات

أو سبع . وبعد عمل متصل طوال أربع سنوات في الجمع والتنسيق تمهيداً للنشر ، فاجأته الحرب العالمية الثانية واعترضت سبيله . فاحتجز في ألمانيا ، وبقي مساعده وجزازاته في مصر . ولما وضعت الحرب أوزارها قعد به المرض عن متابعة عمله ، وتوفي عام ١٩٤٩ قبل أن يخرج معجمه إلى النور . وعبثاً حاول المجمع أن يلم شعث ما تفرق من أصوله ، ولم يقف من جهود أربعين سنة إلا على جزازات غير مستوفاة ، حرص على أن يرتبها ويضعها تحت تصرف الباحثين . ولم يستطع أن ينشر من معجم فيشر إلا مقدمة ونموذجاً صغيراً ، سبق للمؤلف أن أعدهما .

وأغلب الظن أن فيشر قد تأثر « بمعجم أكسفورد » ، وشاء أن يطبق منهجه التاريخي على اللغة العربية . وهي محاولة ولا شك قاسية ، وقل أن يقوم بها فرد وحده ، وقد تكون متعللة اليوم . لأن العربية أفسح مجالاً من الإنجليزية ، ومصادرها أكثر وأغزر ، ومنها ما لم يكشف عنه بعد ، وما كشف لا يزال قلر منه مخطوطاً . ولا أدل على هذا من أن فيشر نفسه قد حصر جهوده ، وقنع بأن يقف عند القرن الثالث الهجري ، وليته استكمل هذه المرحلة ، إنه لو فعل لأمكن متابعة السير من بعده . وكيم نأسف لأن جهوده لم توصل إلى غاية ، وقد حاول المأسوف عليه كريم أن يفيد ، في غير جدوى ، من جزازاته لاستكمال « معجم لين » الذي وقف عند حرف « القاف » .

٥ - شغل المجمع بمعجم فيشر زمناً ، ولما يش من إخراجه استأنف عام ١٩٤٦ جهوده لإخراج معجمه ، واكتفى بأن يسميه « المعجم الكبير » ، تاركاً للزمن استكمال الوسائل الضرورية لوضع المعجم التاريخي . واستطاع عام ١٩٥٦ أن ينشر منه جزءاً في نحو ٥٠٠ صفحة ، عده تجربة دعا المتخصصين من عرب ومستعربين إلى قراءتها ، وتسجيل ما يعن لهم فيها ، راجياً أن يرسلوا إليه ملاحظاتهم مشكورين . وفي مقلمة هذا الجزء تلخيص للمبادئ التي قام عليها « المعجم الكبير » ،

ومن أهمها أن اللغة كل متصل الأجزاء . يرتبط حاضره بماضيه : وهما بعدان معاً لمستقبله . والعربية لغة قديمة وحديثة ، صعدت إلى ما قبل الإسلام ، وبقيت مع الزمن ، وأدت ألواناً من ضروب العلم والمعرفة . فلها قديمها الخالد ، وحاضرها الحي ، ومستقبلها الزاهر . فكيف تقف بها عند القرن الثاني أو الرابع الهجري ؟ إنا إن فعلنا قضينا عليها بالموت . ومعجم القرن العشرين يجب أن يعبر عن اللغة في مختلف عصورها ، فيضم ألفاظاً حديثة إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدور الإسلام ، ويستشهد بالشعر والنثر مهما كان العصر الذي قيل فيه . ولا بد للمعجم الحديث أيضاً أن يشتمل على قدر من المصطلحات العلمية والأعلام التاريخية والجغرافية وخاصة ما اتصل منها بالأدب العربي ، وأن يلتزم الترتيب الهجائي مع تقديم الأفعال على الأسماء ، والمجرد على المزيد ، واللازم على المتعدى ، والحسي على المعنوي ، والحقني على المجازي .

وقد ظهر هذا النموذج بعد دراسة طويلة وببحث شامل ، وأثار ما أثار من تعليق وملاحظة في مجلس المجمع ومؤتمره . فأخذ عليه غلبة الطابع الموسوعي ، والإكثار من الشواهد والنصوص . واستمر المجمع يراجعها ، ويعدل خطته حتى استقام له منهج واضح ، وسار في تطبيقه شوطاً ، ومنذ قليل أخرج الجزء الأول منه . ووضع المعجمات عمل طويل المدى ، ويكفي جيلاً أن يرسم المنهج في دقة ، وأن يطبقه على خير وجه ، تاركاً للخلف أن يتدارك ما تقاصرت عنه جهوده .

٦ - وإلى جانب المعجم الكبير : اتجه المجمع نحو معجم وسيط يسد حاجة التعليم . فقد طلبت إليه وزارة المعارف عام ١٩٣٦ أن يسعف العالم العربي بمعجم على نمط حديث ، محكم الترتيب ، واضح الأسلوب ، سهل التناول ، يشتمل على صور لكل ما يحتاج إلى تصوير ، وعلى قدر من مصطلحات العلوم والفنون ، وملحق بالمشهور من أعلام الأشخاص والأماكن ، وكأنما كانت تصبو إلى شيء شبيه « بمعجم لاروس الصغير » .

ولم ينتظم العمل في هذا المعجم إلا بعد فترة ، وسار أحياناً بين البطء والتردد ، ومع هذا كان معداً للطبع منذ بضع سنين . وظهر أخيراً في جزأين كبيرين ، يحتويان نحو ١١٠٠ صفحة من ثلاثة أعمدة ومن القطع الكبير ، ويشتمل على نحو ٣٠ ألف مادة ، ومليون كلمة ، وستائة صورة . وأغفل فيه منذ البداية ملاحق الأعلام ، وقصر على اللغة قديمها وحديثها ، وتوسع في المصطلحات العلمية الشائعة ، وأخذ بما استقر من ألفاظ الحياة العامة .

وفي هذا المعجم تجديد من نواح شتى ، رتب الكلمات على حسب نطقها لا على حسب تصنيفها ، فذلل صعوبة البحث عن أصولها ومشتقاتها ، ويسر الشرح وضبط التعاريف ، وكتب بلغة العصر وروحه ، واكتفى من الشواهد بما تدعو إليه الضرورة . وطور اللغة ، فقام فيها قصر أمره على السماع ، وقبل ما تدعو إليه الضرورة من الألفاظ المولدة أو المحدثه أو المعربة أو اللخية ، وأفسح المجال لألفاظ الحضارة والحياة العامة . وأخذ بطائفة من المصطلحات العلمية الشائعة التي أقرها المجمع وأصبحت جزءاً من اللغة ، وعرفها المختصون تعريفاً دقيقاً ، وبذا اشتمل على ما لم يشتمل عليه معجم المجمع الفرنسي طوال المائة سنة الأولى من ظهوره . ولا محل لمقارنته « بالمنجد » أو « أقرب الموارد » ، فهو دون نزاع أوضح ، وأدق ، وأضبط ، وأحكم منهجاً ، وأحدث طريقة . وهو بخاصة مجدد ومعاصر ، يهدم الحدود الزمانية والمكانية التي أقيمت خطأ بين عصور اللغة المختلفة .

وقد أثار شيئاً من النقد والملاحظة ، وإن كان دون ما كنا نتوقع ، وكلنا يعلم كم نوقش معجم الأكاديمية الفرنسية في عنف وقسوة . وكأنما يقر الباحثون مع المجمع منهج « المعجم الرسيط » ويرحبون بتجديده في فن التأليف المعجمي ، ويرون فيه ما يسد حاجة ، وما يوجه نحو معجمات جديدة . وقد نفذت طبعته الأولى ، ويرجى أن تظهر الطبعة الثانية قريباً

منقحة ومهذبة ، ومنقحة مما وجه إلى الطبعة الأولى من ملاحظات .
 ٧ - ولن نقف طويلاً عند المعجمات الثنائية أو الثلاثية ، ولا عند
 معجمات اللهجات . وقد وضع من الأولى عدد غير قليل في القرن العشرين
 تيسيراً للترجمة والبحث العلمي ، أو سدّاً لحاجة السياحة والسفر . فهناك
 معجمات عربية فرنسية . أو عربية إنجليزية . وبالعكس . ونحرص على
 أن نشير إلى (Arabischen Wörterbuch) الذي وضعه زميلنا الأستاذ
 غير عام ١٩٥٢ . وعوّك فيه على العربية المعاصرة ، وخاصة العربية المصرية .
 أما معجمات اللهجات فلم يوضع منها في القرن العشرين شيء يذكر ،
 وما ذاك إلا لأن اللهجات العربية لم تدرس بعد الدرس الكافي . وكم دعا
 المجمع إلى درسها ، ورحب بكل ما يبذل فيها من جهد .
 وهناك نوع آخر من المعجمات عرف في اللغة العربية من قديم ،
 ونعني به معجمات العلوم والفنون ، ونستطيع أن نذكر من بينها « مفاتيح
 العلوم » للخوارزمي (٩٩٧ م) ، « وكشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوي
 (١٧٤٥ م) إلا أن هذه على أهميتها إنما تعبر عن الماضي ، وينقصها
 كثير من الوضوح والدقة ، وقل أن تتوافر فيها شرائط الفن المعجمي الحديث .
 ولم تقف مصطلحات العلوم والفنون عند القصر الذي جاءت به ، بل نمت
 نمواً كبيراً في التاريخ الحديث ، وفي اللغات الأوروبية معجمات علمية
 وفنية متعددة ، ولا بد للعربية أن تحذو حذوها .

وما إن اتصل العالم العربي بالنهضة العلمية الحديثة حتى بدأ ينقل
 عنها ، ويضيف إلى مصطلحاته القديمة مصطلحات جديدة ، ومنذ
 أوائل القرن الماضي حاولت مصر أداء الحقائق العلمية الجديدة بالفاظ
 عربية أو تركية أو فارسية ، وقد تلجأ إلى اللفظ الأجنبي فتعربه ، فرنسيّاً
 كان أو إيطاليّاً أو إنجليزيّاً . ولم يتردد الباحثون منذ النصف الأخير من
 القرن الماضي أن يضعوا معجمات في بعض العلوم ، وإن لم تصل إلى
 المستوى المنشود . وفي القرن العشرين ظهرت معجمات أخرى أكثر

وضوحاً وأعظم دقة ، ونكتفى بأن نشير إلى اثنين منها ونضعهما مجعمان ، أحدهما مصرى والآخر سورى ، ويعدان حجة في بابينها . فأما الأول فهو « معجم إنجليزي عربي في العاوم الطبية والطبيعية » للدكتور محمد شرف ، وقد نشر عام ١٩٢٨ ، ويشتمل على عدة آلاف من المصطلحات الإنجليزية : ومعها مقابلها وتعريفاتها بالعربية . وأما الثانى فهو « معجم الألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية » للأستاذ الأمير مصطفى الشهابى ، وقد أعيد طبعه غير مرة ، وفي الطبعة الثالثة (١٩٥٧) عشرة آلاف مصطلح فرنسى ، ومعها مقابلها العربى أو العرب ، ولا يتردد المؤلف فى أن يذكر أكثر من مقابل إذا كان المصطلح العربى لم يستقر بعد .

وكان لا بد للمجمع أن يعنى بهذه المصطلحات لأنه مطالب « بأن يحافظ على سلامة اللغة ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات العصر ومقتضياته » . وقد أنفق فى سبيلها كثيراً من وقته وجهده ، دعا إليها الخبراء والمتخصصين ، وكون من أجلها اللجان ، وعقد لها الجلسات . وكان حريصاً على تخير المصطلحات من بين مفردات اللغة بالاشتقاق أو النقل ، وقد يلجأ إلى التعريب . ثم أخذ ينشر تباعاً ما أقر منها فى مجلته ، أو فى مجموعات خاصة ، أخرج منها حتى الآن اثنتى عشرة . ظهرت أولها عام ١٩٤٢ ، وفيها ٣٥٦٦ مصطلحاً ، والثانية عام ١٩٥٧ وفيها ٩٥٩٠ مصطلحاً ، والثالثة عام ١٩٦٠ وفيها ٢٣٥٧ مصطلحاً ، والرابعة فى مارس ١٩٦٢ وفيها ٢٢٥٠ مصطلحاً ، والخامسة فى يولييه ١٩٦٣ وفيها ١٦٠٠ مصطلح . وتلتها سبع أخرى يشتمل كل واحد منها فى المتوسط على ١٥٠٠ مصطلح . وفى هذه المجموعات يعرض المصطلح الأجنبى بالإنجليزية أو الفرنسية أو بهما معاً ، ومعها مقابله العربى وتعريفه فى الغالب . وفى هذا ما يسر حركة الترجمة العلمية ، ويكون مادة المعجمات الخاصة فى العلوم والفنون . والواقع أن هذه المجموعات تنشر كما أقرت موزعة بين عدة مواد ، ومرتبعة

على حسب حروف الهجاء اللاتينية . ونعتقد أنه قد حان الوقت لكي نستخلص منها مجموعات متنوعة على حسب المواد المختلفة ، أو بعبارة أخرى معجمات خاصة مرتبة ترتيباً هجائياً عربياً .

* * *

والآن نستطيع أن نقرر أن فن المعجم العربي نما وتطور في القرن العشرين ، وأخذ يحاكي نظيره في اللغات الأوروبية الكبرى أو يزيد عليه . وطرحت تلك النظرية التي كانت تقول بأن العربية لغة لا تقبل التجديد ولا التطور ، وأصبحنا نسلم بعربية معاصرة إلى جانب العربية القديمة ، وبكلاسيكية قديمة وكلاسيكية محدثة . وفتح باب القياس على مصرعيه في اللغة كما فتح في الفقه والتشريع ، ومن حقنا أن نبتكر ألفاظاً وعبارات كما ابتكر أجدادنا . وقد استعادت العربية نشاطها بعد ما مر بها من خمول ، وفيها اليوم حياة وقوة لم تنعم بهما منذ عدة قرون .

المعجم الأبجدي

تأليف المعجمات اللغوية فن عرف من قديم ، وسبق أن عرضنا له في شيء من التفصيل . ولاحظنا أن العرب خطوا فيه خطوات فسيحة فاقوا بها الإغريق والرومان ، وبرزوا على رجال القرون الوسطى . واستطاعوا أن يوحوا بشيء إلى معجمات عصر النهضة والتاريخ الحديث . ولكن هذا الفن لم يتوقف ، واستمر ينمو ويتطور حتى بلغ قمته في القرن العشرين ، وظهرت له آثار واضحة في بعض المعجمات الأوربية الكبرى كمعجم « لاروس » في الفرنسية ، ومعجم « أكسفورد » و « وبستر » في الإنجائزية .

ويقوم هذا الفن على دعائم ثلاث أساسية ، عناية باللغة بالوضوح والترتيب ، وأخذ بالمنهج التاريخي ، وتوسع في الطابع الموسوعي ، ويعني أن أقف قليلا عند الترتيب ، وهو دعامة أولى من دعائم التأليف المعجمي . وقد مر في العربية بأدوار مختلفة ، فرتب الخليل بن أحمد « كتاب العين » على حسب مخارج الحروف ، بدأ بالحروف الحلقية ، وانتهى بالحروف الشفوية . ورأى الجوهري وأكثر اللغويين إيراد الكلمات المعجمية مرتبة على حسب أواخر أصولها ، وحاول آخرون اعتبار الحروف الثلاثة الأولى من الكلمة أساساً لترتيبهم . وفي هذا ما فيه من غموض وعقيد ، وأبسط الأمور أن ترتب الكلمات على حسب نطقها .

ولكن إلى أي مدى نستطيع أن نطبق هذا في معجماتنا العربية ؟ هذا ما يختلف فيه الرأي في نصف القرن الأخير ، فذهب بعض المؤلفين إلى ترتيب الكلمات على حسب نطقها ، دون مراعاة لمادة أو تصريف .

ولعل أول تجربة في ذلك هي تلك التي حاولها قانونيان مصريان في أوائل هذا القرن ، فقد شغلا بالمعجم العربى مدة غير قصيرة ، وهما محمد النجارى وجرجس حجار- وفى عام ١٩٣٨ بعث ورثة الأول بمشروع معجمه إلى المجمع تمهيداً لطبعه ، وطال فيه الأخذ والرد دون جدوى ، ولا تزال أصوله محفوظة بمكتبة المجمع إلى اليوم . وشاء الثانى أن يستشير المجمع أيضاً عام ١٩٥٦ فى إخراج معجمه ، فكان رد المجمع عليه صريحاً ، وهو أنه « لا يوصى بنشره فى ترتيبه الحرفى البحت الذى لم تراعى فيه قواعد التصريف » .

وأخرجت المطابع اللبنانية أخيراً معجمين : أولها : « الرائد » الذى رتب مفرداته وفقاً لحروفه الأولى . والثانى : « المنجد الأيجدى » الذى سلك الطريق نفسه تقريباً ، وفى المعجمين معاً ، وإن اختلفت طريقتهما فى الترتيب ، جهد صادق ، ورغبة أكيدة فى التيسير . ولكن هذه التجربة الحية كشفت عن جوانب نقصها ، فكثيراً ما أغفلت مضارع الثلاثى ، وهو ليس ييسر ، ولم تذكر من المصادر والجموع إلا القليل ، ولا حاجة بى إلى أمثلة ، وعرضها بطول ، وشئت أيضاً المادة اللغوية الواحدة ، ووزعتها فى أماكن متعددة ، فزادت حجم المعجم زيادة ملحوظة ، وحالت دون الفهم الواضح والإدراك التام لمدلول الألفاظ . وهى بهذا لا تعين على تكوين ثقافة لغوية لدى الناشئين ، الأمر الذى نحسن نقصه ، وما أجدرنا أن نتلافاه ، وأن نسعى إلى تعزيز هذه الثقافة ما وسعنا . ولست فى حاجة أن أشير إلى أن بعض البلاد الأوربية لا تزال تهتم على تزويد بنيتها بقلدر من اللاتينية ، كى يربطوا لغتهم الحية بأصولها .

وإننا لندعو دائماً إلى التيسير ، وسبق لى أن قلت : « إن أبسط الأمور فى تبويب المعجمات أن ترتب الكلمات على حسب نطقها لا على حسب تصريفها ، ومن اليسير تطبيق ذلك على العربية وإن تكن لغة اشتقاق » . ولكن لذلك حدوداً الترمناها ، وأوضاعاً وقفنا عندها ، ولم

نجاوزها بحال . وقد أخذ المجمع نفسه بترتيب الكلمات على حسب نطقها ، ولكن في نطاق مادتها ، و « معجمه الوسيط » خير شاهد على ذلك . ونعتقد أنه يسر على الناشئين أمر الكشف في المعجمات تيسيراً كبيراً ، ولا يحس فيه الباحث بصعوبات الاشتقاق والتصريف . ونحيا « المعجم الكبير » نحوه في الترتيب والتبويب ، وسبق اللغوى الألمانى الكبير فيشر فسلك المسلك نفسه ، وقد أخرجنا من معجمه نموذجاً صغيراً يلتزم فيه بذلك .

وعندى أن المعجم الأيجدى الصرف إن لاءم بعض الأجانب والسائحين فإنه لا يعين على تحقيق الثقافة اللغوية التى ننشدها ، ولا يسد حاجة من يريدون تذوق اللغة وفهمها على وجهها . والمعجم اللغوى لا يمكن أن ينزل عند مستوى فهرس لألفاظ ومعانيها ، أو أن يصبح أشبه ما يكون بدليل للتليفون . وهدفه الأول تكوين ملكة اللغة عند الناشئين والدارسين ، وعونهم على فهمها وتذوقها .

الباب الرابع

في الأدب

الشعر

الشعر لغة القلوب ، ومرآة النفوس ، يعبر عن الحلجات الغامضة ،
ويكشف عن الإحساسات الدفينة . يخاطب الوجدان والعاطفة ،
ويستلهم الوحي والخيال ، وينفذ إلى أعماق شيء في الإنسان والطبيعة .
يقوم على اللفظ الرشيق ، والتصوير الدقيق ، والتشبيه البديع ، والنغم
الحلو . يقول صاحب كتاب « العمدة » : إن « بنية الشعر من أربعة :
لفظ ، ومعنى ، ووزن ، وقافية ، وما سمى الشاعر شاعراً إلا لأنه يشعر
بما لا يشعر به غيره ، فإذا لم يكن عنده توليد معنى ، ولا اختراع صورة ،
ولا ابتداء لفظ ، كان اسم الشاعر عليه مجازاً » . ويقول أيضاً : « الشعر
ما اشتمل على الاستعارة الرائعة والتشبيه الرائع ، وما سوى ذلك فوزن » .

وللشعر في الحقيقة جانبان لا وجود له بدونهما ، وهما الخيال والموسيقى .
فبالتمثيل يخرج الشاعر على المألوف ، ويأتى بالغريب والطريف . وقديماً
تحدثوا عن شيطان الشعر ، وليس شيئاً آخر سوى تلك القوة الخالقة
المبدعة ، التي عدها أفلاطون قوة إلهية مقدسة ، وسماها بعض المحدثين
إلى مستوى المعجزة . والأخيلة الشعرية هي التي تهز الشعور والوجدان ،
وتسبح بنا في عالم آخر غير عالم الواقع . وتردد كثيرون في أن يعدوا النظم
التعليمي شعراً ، لأنه لا خيال فيه ولا تصوير ولا تشبيه . وليس هذا الخلق
والإبداع في تناول الجميع ، بل لا بد له من ملكة واستعداد خاص ،
ومن لا موهبة عنده أولى به ألا يغامر في هذا المضمار .

الشعر صعب وطويل سـلـمـه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
هوت به إلى الحضيض قـلـمـه

والشعر وثيق الصلة بالموسيقى ، تطرب النفوس لوزنه ، وتهتز الأجسام
لنغمه . وأغلب الظن أنه نشأ أول ما نشأ في ثوب الغناء ، يترنم به الفرد في
وحدته ، وتردده الجماعة في جدها ولطوها ، وقد قيل : « الشعر موسيقى
المجاهدين في سبيل المجد ، وحداء المجتهدين في ركب الحياة » .

ويحاول الموسيقيون دائماً أن يوقعوه على سلمهم ، ويؤدوه بألاتهم ،
وما التلحين إلا صوغ للشعر صياغة موسيقية . وبما فيه من موسيقى يرتبط
ارتباطاً وثيقاً بالفنون الجميلة ، وينفذ إلى القلوب ، ويزداد تأثيره في
النفوس ، وإن فاته الوزن والنغم ، فلا سبيل إلى التفرقة بينه وبين
النثر .

قيوده وضوابطه :

لكل لغة شعرها ، وهو قديم قدم اللغات نفسها . ومن المرجح أنه
يبدأ شعبياً سهلاً ، ثم يفتن فيه الموهوبون والمتخصصون . ويوم أن يصبح
فنًا وصناعة ، توضع له قيود وضوابط تقسو حينًا وتلين حينًا آخر . والفن
في حركة دائمة بين الحمود والطلاقة ، بين المحافظة والتجديد ، بين الاتباع
والابتداع . وأكثر ما تنصب هذه القيود على الصور الشعرية من جانب ،
والوزن والموسيقى من جانب آخر . ودون أن ندخل في تفاصيل ذلك ،
ونعرض لكل من عنوا به ، نكتفي بأن نشير إلى رجلين اثنين : أرسطو بين
اليونان ، والحليل بن أحمد بين العرب .

وأرسطو رائد في أكثر من ميدان ، بدأ دراسات لأول مرة ، وأخرجها
شبه كاملة ، هو رائد بلا شك في علم المنطق ، ويمكن أن يعد بحق رائداً
في دراسة الشعر . وضع فيه كتاباً قلر له نجاح كبير ، وأثر في الآداب
الأوربية على اختلافها . ترجم إلى عدة لغات من بينها العربية ، وشرح
غير مرة ، ومن علقوا عليه ابن سينا وابن رشد . وعلى أساسه قامت

الكلاسيكية في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا ، واعتبر دستوراً للشعر والفن المسرحي .

ويرى أرسطو أن دعامة الشعر التخيل ، وتحقيق متعة روحية هي متعة التصوير والوصف . ولا بد فيه من انسجام وإيقاع ، فمادته مستمدة من عبقرية الشاعر واختراعه ، وقوام اغته الوزن والموسيقى . والشاعر حر في اختيار أوزانه ، ولكن لا بد له من وزن على كل حال . ويقول بنظرية المحاكاة التي ترمي إلى رد الشعر إلى شيء من الواقع ، وإن تعارضت مع فكرة التخيل التي أكدها في أكثر من مناسبة .

والخليل بن أحمد رائد آخر من رواد الفكر الإنساني ، ذو عبقرية ممتازة وأصالة نادرة ، فهو المؤسس لفن المعاجم العربي ، ويعد بحق مؤسساً لعلم النحو ، أخذ عنه سيبويه وعول عليه . وهو الواضع لعلم العروض الذي لا نزاع في أنه علم عربي ، فلا نظير له في اللغات السامية القديمة ، ومن الخطأ أن يقال إن فيه محاكاة لنماذج من الشعر اليوناني . وإنما عول فيه الخليل على ذكائه الحاد ، وأذنه الموسيقية ، وحفظه للكثير من الشعر العربي . ويظهر أنه كان رياضياً ماهراً ، فأقام العروض على أساس هندسي ، وربط بحوره بدوائر معينة . وكان لهذا العلم أثر كبير ، لا في العربية وحدها ، بل امتد إلى لغات أخرى كالعبرية والفارسية والتركية . وإذا اعتبرنا الموشحات الأندلسية امتداداً له ، استطعنا أن نقول إنه أثر في بعض اللغات الأوروبية .

ذهب الخليل إلى خمسة عشر بحراً أقامها على خمس دوائر ، ورأى فيها ما يجمع أوزان الشعر العربي . ويظهر أنه بنى حصره على أساس نظري أكثر مما استمده من الواقع ، فن البحور التي قال بها ما أملاه منطق الدوائر الخمس ، ومنها ما يمكن رد بعضه إلى بعض . وبعده بقليل استطاع الأخفش الصغير أن يضيف إلى بحوره بحراً جديداً ، هو : المتدارك .

وفي القرن الرابع الهجري أحدث الجوهري بعض التعديلات : فحذف
تفعيلة من تنعيلات الخليل الأصلية . واستمعنا في مؤتمر من مؤتمرات
المجمع إلى بحث في « ميزان البند » . وهو وزن خفيف يقوم في الغالب
على تكرار تفعيلة واحدة في أشطر قصيرة . ظهر في العراق منذ ثلاثة قرون ،
والعراقيون شعراء مجيدون يخلون بالوزن والنغم . وفوق هذا ، في الزحاف
والعلل ما ينتهي بالبحور المعروفة إلى ٨٥ صورة ، تتنوع بها الأوزان أيما
تنوع ، ومهما يكن من أمر فعلم العروض يكشف عن الجانب الهام في
الشعر ، وهو الوزن والموسيقى .

تطوره :

لسنا في حاجة أن نشير إلى أن الشعر في تطور مستمر ، يتطور
بتطور اللغات نفسها من جيل إلى جيل ، بل من شاعر إلى آخر . يتطور
في لفظه ومعناه ، كما يتطور في أخيلته ومبناه ، وهو أشبه ما يكون بلوحة
متحركة يرسم عليها الفنان ما يعن له من صور وألوان ، ويعني أن نعرض
لشيء من تطور وزنه . والأوزان الشعرية متنوعة متجددة في اللغات كلها ،
وهذا التنوع ملحوظ في الشعر العربي . والعروضيون وحدهم هم الذين
يأخذون بحور الخليل مأخذ القوالب الجامدة ، أما الشعراء فيعتدون بعقريتهم ،
ويحرصون على حريرتهم في تجديدهم واختراعهم . ومنهم من لا يعرف
العروض مطلقاً ، وقل من يستحضره حين ينظم أو يترنم . وأعلن أبو العتاهية
من قديم أنه فوق الأوزان والبحور ، وأباح أبو تمام لنفسه الخروج على
البحور المألوفة ، ولوحظ على البحري أنه كثير الزحاف ، ولم ينتقص
ذلك شيئاً من جمال شعره . وقيل خطأ إن نظم المتنبي وأبي العلاء لا يعد
شعراً ، لأنهما لا يلتزمان الأساليب القديمة .

وعنى ابن خلدون بتطور الشعر العربي ، ووقف عليه في « مقدمته »
فصلاً طويلاً جاء دليلاً جديداً على أنه جدير بأن يسمى مؤسس علم

الاجتماع . فقد عالج فيه الشعر على أنه ظاهرة اجتماعية تتأثر بتغير الأحداث السياسية والاجتماعية ، وتخضع للعوامل الحضارية والعمرائية : وأدخل فيه الشعر الشعبي الذي يعد باباً هاماً من أبوابه . نجىء على النظرة ، ويعبر عن الإحساسات في غير تكلف . ويتغنى به الناس فرادى وجماعات . وعنده أن البلاغة لا تتوقف على الإعراب ، والمهم مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ومن الشعر الشعبي ما يسمو إلى المستوى البلاغى وإن لم يخل من اللحن . ولم يستوعب العروضيون النغمات كلها ، وباب الحديد فيها فسيح ومفتوح دائماً . والموشحات ذات نغمات جذابة ، وهى شعر حضري خفيف مرقص ، ابتدعه الأندلسيون وتغنوا فيه .

وحدثنا الدكتور طه حسين عن فن من فنون الشعر يتطور بأعين الناس ، وهو الرجز . فأشار إلى أنه عرف منذ الجاهلية ، وعمر إلى اليوم ، ولكنه استخدم في حفظ اللغة ، واتخذ أداة للشعر التعليمى وديواناً للحكمة متخذاً أشكالاً وصوراً شتى . قد لا يحفل به الشعراء ولا يقفون عنده ، وهو قبل كل شيء أكثر فنون الشعر ملائمة للغناء الشعبى .

• • •

وفى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقول إن قضية الشعر الحر غير ذات موضوع ، إذ ليس ثمة من ينكر على الشاعر حقه فى الابتكار والاختراع ، ولا من يضيق عليه حريره ما دام لا يحول الشعر إلى نثر مرسل أو مقيد . ولقد جمعنى فى بغداد أخيراً ندوة شعرية ، ودار فيها حوار طويل حول هذا الموضوع ، ونعنا فيها بتقاش ممتع خرجنا منه بأمرين هامين ، فاتفقنا أولاً على أنه لا شعر إلا حيث الخيال المبدع والوزن الشجى ، ولاحظنا ثانياً أن أدعياء الشعر لا يكاد يخلو منهم عصر ، يحاولونه ولا قبل لهم به فيسفون ، ويأبون إلا أن يعدوا إسفافهم عملاً فنياً . ودنيا الشعر — كما قيل — كدنيا الفنون لا يخلد فيها إلا الأعلون .

القصة

لقد كنا نتوق منذ فجر هذا القرن إلى أدب قومي تمليه آمالنا وأمانينا ،
ويترجم عن عواطفنا وشعورنا ، ويحلل عاداتنا وتقاليدها ، ويصور بيئتنا
وطنتنا ، أدب يحى معالم الماضي ويرز مظاهر الحاضر ، ويرسم أهداف
المستقبل ؛ أدب له خصائصه ومميزاته ، وشخصيته ومقوماته بحيث يذكّر
إلى جانب الآداب الأخرى ، فيتحدث عن أدب مصرى كما يتحدث عن
الأدب الفرنسى والإنجليزى . أدب يعيد إلى العربية مجدها وعزتها ، فيأخذ
منها كما تأخذ من غيرها ويترجم عنها كما يترجم إليها .

هذه هى الأمنية ، ويسعدنا أن نلاحظ — ولا يمحض عليها نصف
قرن — أنه قد تحقق منها قسط كبير . فإنتاجنا الأدبى خصب متنوع
قد تناول أبواب الثقافة المختلفة ، من علم وفلسفة وتاريخ واجتماع ، واقتصاد
وسياسة . كتب بلغة العصر وروح العصر ، فاستساغته النفوس وامتزج
بالأفئدة . وبلغ بعض كتابنا وشعرائنا الذروة أو دنوا منها ، فأضحوا
ولهم عشاق وأتباع فى مختلف الأقطار العربية ، بل لقد امتد أثرهم إلى
بعض العواصم الأوربية . ونظرة إلى الوراء قليلا كافية للتدليل على ماخطونا
فى هذه السبيل من خطوات .

وليس شىء أحب إلى حملة راية النهوض الأول من أن يروا فى الميدان
الجنود والأنصار ، فى ذلك ما يطمئنهم على ازدهار غرسهم ونجاح
دعوتهم ، وما يشعرهم بأن الأمانة التى سهروا عليها قد لقيت من بحسن
أداءها ، وأن الرسالة التى اضطلّعوا بها قد صادفت من يعرف كيف

يتعهدا . وفي مسابقات المجمع الأدبية ما يكشف عن جيل جديد يبعث على الأمل ويخلق الثقة في المستقبل . وإذا كان بعض شباب المتأدين تنقصه الإجادة ولا يعنى بالروية والإتقان ، ففي مثل هذه المسابقات ما يحفز الهمم ويستثير النفوس .

ولا شك في أن القصة باب هام من أبواب الأدب ، كان لها حظها في الآداب القديمة ثم انتهت إلى منزلة سامية في الآداب الحديثة . فطغت على الرسائل والمقالات ، وحلت محل القطع الوصفية والاعترافات ، وتكاد تستأثر بالأدب المنشور المعاصر . وإذا كان المسرح قد أخذ يبدى بالأمس فإن السينما تفتح اليوم أمامها آفاقاً فسيحة . وإذا كان الخيال والحرفة قد غذتها قديماً بغذاء شهى جذاب ، فإن الرحلة والأسفار تمددها الآن بالطريف من أخبار القبائل والشعوب ، والغريب من وصف الكائنات والبقاع .

تساير القصة الناس في طبائعهم ، وتجري مجرى إلهام وعاداتهم ، لذلك صادفت هوى من نفوسهم ، وأضحت من أشد أنواع الأدب تأثيراً في الجماهير . فيها مناجاة نفسية ، وتخفيف للوعة ، إن كانت قد أملتها ظروف شخصية ، فإنها لا تلبث بمجرد وضعها أن تصبح قديماً مشتركاً وملكاً مشاعاً يتبناه كل من اهتدى إليه . وفيها كشف عن مكنون الصدور وحقى الطباع ، يكشف الكاتب فيها نفسه لنفسه أو عن النفس البشرية لقرائه . ويلمس القارئ فيها أموراً كان يتوهمها دون أن يقف على كنهها أو يجد السبيل إلى التعبير عنها . ومع هذا تحمل شيئاً من طابع السرية وإن نشرت وأذيعت بين الناس ، لهذا يحرص قارئها على أن يختل بها ويفرغ لها على أفراد . وفيها سحر قد ينسى المرء من حوله ، ويصرفه عن طعامه وشرابه ، ويجد فيها من المتاع والأنس ما لا يجده في حطم للذيد أو مجلس لم يكلم صفوه مكلر .

والقصة أداة نافعة من أدوات نشر المعرفة والثقافة ، نساغ موردها ، وكثر قراؤها ، فنقلت إليهم فروعاً شتى من العلم والفلسفة ، وصورت لهم آيات الفن والحضارة . وهناك أشخاص يرجع قسط كبير من ثقافتهم إلى ما قرءوا من قصص وروايات ، وهناك آراء ونظريات خدمها الأدب القصصى وساعد على نشرها أكثر مما خدمها الباحثون والعلماء . وفي كلمة واحدة يمكن أن يقال إن القصة وسيلة من وسائل اشتراكية العلم وجعله في متناول الجميع .

وللأدب العربي القديم جانبه القصصى ، وإن كان دون ما يلحظ في الآداب القديمة الأخرى . ومن يدرى ، فقد يكون القصص الجاهلي قد ضاع فيما ضاع من آثار أدبية أخرى ، على أن كتب الأدب الكبرى كالأغاني والأمالى والعقد الفريد تحتفظ بأقاصيص مختلفة ، والمعلقات في قسط كبير منها قصص منظوم . وما إن اختلط المسلمون بالأمم الأخرى حتى تأثروا بقصصها ، كما تأثروا بألوان ثقافتها الأخرى ، وكتاب « كلبلة ودمنة » ، و« ألف ليلة وليلة » من أوضح الأمثلة على ذلك . وقد أنشأوا ضروباً جديدة من الأدب القصصى ، كالمقامات والرحلات ، وفي مقدمتها « مقامات » بديع الزمان والحريري ، و « رحلة » ابن جبير وابن بطوطة .

غير أن القصة مع هذا لم تبرز في الأدب العربي بروزها في الآداب الحديثة . ولهذا قام أدبنا القصصى المعاصر أول نشأته على التقليد والمحاكاة والنقل والترجمة . وإذا استثنينا « حديث عيسى بن هشام » ، وجدنا أن القصص والروايات التي صادفت نجاحاً في العقدين الأولين من هذا القرن إنما كانت في أغلبها مترجمة . ثم أخذت القصة المصرية ترسم لنفسها طريقها ، وتستكمل شخصيتها ، فخطت الأقصوصة رويداً رويداً إلى أن أصبحت قصة ، وقرأنا من القصص المصرية المبتكرة ما لا يقل روعة وبهاء عن بعض القصص الأجنبية المترجمة ، وأملت عاداتنا وتقاليدها وماضيها وحاضرها على الكتاب قصصاً فيه نقد وتحليل وعظة

وحكمة . وبدا وادى النيل فى سمائه الصافية وشمسه الزاهية وطبيعته الهائلة على صورة لوحات فنية أحكم القصصيون صنعها وأجادوا التعبير عنها .

وبذا تعدد القصص المصرى وتنوع ، فمنه المسرحى وغير المسرحى ، والخيالى والواقعى . ونحا القصصا مناحى شتى . فمنهم من أولع بالحوار يفضلهُ على أى أسلوب آخر ، ومنهم من اختار السرد والرواية المتصلة ، ومنهم من جمع بين هذا وذاك . ويبدو على بعضهم أنه إلى النقد الاجتماعى أميل ، وفى مناقشة العادات والتقاليد أرغب ، وعلى بعض آخر أنه بالتاريخ ألصق ، يستمد منه مادته ويرسم فى ضوءه أبطاله .

ولا أدل على هذا التنوع من تلك المجموعة التى قدمت للمجمع مرة فى مسابقة القصة . فقد تقدم إليه فى القصة وحدها نحو عشرين متسابقاً ، وبأيديهم ما يقرب من الثلاثين قصة . وواضح أن هذا الرقم لا يمثل كل إنتاجنا القصصى فى الفترة التى حددت ، إلا أن له على كل حال دلالة ، خصوصاً والمتسابقون فى أغلبهم شباب أشربوا حب القصة وتعلقوا بأدبها . وفى إقبال الشباب على القصة ما يبعث على الأمل فيها ويؤذن بمستقبلها الزاهر .

ويعينى أن أقف عند قصتين اثنتين من هذه القصص الثلاثين : أولاهما « على باب زويلة » للأستاذ محمد سعيد العريان ، والأخرى « خان الخليل » للأستاذ نجيب محفوظ .

فأما الأستاذ العريان فقد تخرج فى مدرسة دارالعلوم وتفرغ لتدريس اللغة العربية ، وعنى بتصحيح العبارات وتقويم الأساليب . ويظهر أنه أحس أن مكتبة الطفل المصرى فقيرة ، وأن وسائل سمره وتسلية محدودة ، فاتجه مع بعض زملائه إلى وضع كتب ثلاثية ، ووجد فى القصة خير وسيلة لتسلية . وكان من نتائج ذلك « سلسلة القصص المدرسية » ، التى ظهر منها حتى الآن أربع وعشرون قصة فى أسلوب سهل مبسط .

والى جانب مساهمته فى هذه السلسلة ، استقل بمجموعة أخرى قدم فيها اثنتين وثلاثين قصة صغيرة تحت عنوان : « من حولنا » ، وهى أقرب إلى الأقصوصة منها إلى القصة ، تعرض صوراً مصرية ، وتعالج بعض مظاهر حياتنا العامة ، وتتجه نحو الكبارفتقابل « القصص المدرسية » التى وضعت خصيصاً للصغار .

غير أن إنتاجه القصصى الهام قد نحا منحى آخر ، فاتخذ من التاريخ مادته ، وعالج بعض أشخاصه وأحداثه ، يتحدث عنها بأسلوبه ويصورها بفنه . والقصة فى حقيقتها تاريخ للحاضر أو للماضى ، تحكى الواقع وتبرز معالمه ، وتمزج بين الحقيقة والخيال . وقد شاء الأستاذ العريان أن يقف عند التاريخ المصرى الإسلامى ، فكتب أولاً « قطر الندى » التى تصور عصر الدولة الطولونية منذ بدئه حتى نهايته ، ثم أتبعها « بشجرة الدر » التى جاءت عنواناً صادقاً لعهد الدولة الأيوبية .

وما هو ذا يقدم لنا أخيراً « على باب زويلة » التى تعرض لقانصوه الغورى وخليفته طومان باى ، فمن الدولة الطولونية إلى الأيوبيين ، ومن هؤلاء إلى المماليك . ولا شك فى أن القصة الأخيرة تفضل سابقتها ، فهى أغزر مادة ، وأدق تحليلاً وأعظم عناية بالتاريخ ودقائقه . يتخذ القارئ بأسلوبها العذب وعباراتها الجزلة ، ونسجها المحكم . إلا أنها من ناحية أخرى كثيرة الشخصيات بحيث عز على كاتبنا أحياناً أن يوفىها جميعاً حقها من التصوير والتحليل ، ومتلاحقة الحوادث بحيث يخشى أن تتداخل ويطغى بعضها على بعض .

ومهما يكن من أمر هذه الملاحظة ، فإن الأستاذ العريان فى صفاء أسلوبه وقوة تعبيره وصدق تصويره وانساجه فى جو الوقائع التى يريد إخراجها ، قد توافر لديه كثير من وسائل الكاتب القصصى ، ولهذا استحق جائزة الجمع .

واما الأستاذ نجيب محفوظ فقد نشأ نشأة فلسفية . وتخرج في قسم الفلسفة بكلية الآداب ، إلا أن أدب القصة قد بهره - فيما يظهر - فشغف به ووجد فيه من رقة الحواشي ما كاد ينسيه جفاف الفلسفة وقسوتها . على أنه يأبى أحياناً إلا أن يفلسف القصة ، ويسبغ عليها ألواناً من النظريات الأخلاقية والآراء السيكولوجية .

ولأمر ما قدر له أن يبدأ إنتاجه القصصى بما يصح أن نسميه القصص الفرعونية ، فقد وضع منها ثلاثاً متوالية هي : « عبث الأقدار » ، و « رادويس » و « كفاح طيبة » ، وإنها لبداية موفقة سما فيها خياله سموا ملحوظاً ، وظهر استعداد القصصى واضحاً ، وأفاد كثيراً من كتاب « مصر القديمة » الذى سبق له أن ترجمه . ولانزاع فى أن هذه القصص الثلاث تربطنا بالتراث الفرعونى ، وتكشف عن دعامة من دعائم الشعور القوى ، وتغذينا فى ناحية يسرنا أن ندخل فى صميمها ونستمع بها .

ولا أظن أن كاتبنا يسرف أبداً إن عاد إليها ، وعاود الكتابة فيها ، وتبع شتى أطرافها .

ولكنه شاء أن يتقل نقلة واسعة ، فرحل من مصر القديمة إلى مصر الحديثة ، وجاوز طيبة ومنفيس إلى الفجالة والدقى . وألف فيما يمكن أن نسميه « القصص العصرية » ثلاثاً أخرى هي : « خان الحليلى » و « القاهرة الجديدة » و « زقاق المدق » . وإذا كان يتحدث فى القصص الأولى عن الماضى ويحكى مجد الفراعنة ، فإنه فى الأخيرة ينغمس فى حياتنا الاجتماعية الحاضرة ، فيكشف عن كثير من خباياها ، ويعرض منها صوراً تقرب من الواقع كل القرب . ففيها دراسة واقعية تحليلية لضرب من الأخلاق والمعادن فى مختلف البيئات ، وتصوير صادق لبعض التقاليد .

و « خان الحليلى » بوجه خاص تعرض أمامنا أياماً عاشها كثيرون

منا ، وتستعيد ذكريات شعراؤها بشيء من العذوبة . وفيها ما يدل على أن الكاتب شرقى صميم فى شوقيته ، قاهرى ملم تمام الإمام بعادات مدينته . هذا إلى أنها ترمز للتطور الاجتماعى الذى تمر به ، وتشير إلى مرحلة الانتقال الحضارى التى نجتازها .

كل ذلك فى خيال بديع وتصوير دقيق وتحليل نفسى بارع . وإذا كان فى أسلوب المؤلف ما يدعو إلى نقد أو ملاحظة ، فإن فنه القصصى مبعث تقدير واستحسان ، وإذا كانت نشأته الفلسفية قد باعدت بينه قديماً وبين القراءة الأدبية المستفيضة ، فإن واجبه اليوم وقد تفرغ للأدب القصصى أن يستكمل كل وسائله وأدواته . ومهما يكن من أمر هذه الناحية فإن الأستاذ نجيب محفوظ قد أقام الدليل على مقدرته القصصية ، وعلى أنه من كتابنا القصصيين الممتازين ، ولهذا استحق جائزة المجمع وتقديره .

الأدب العربي تجاه مشكلتي اللغة والحرف^(١)

١ - لغة سلطان وقداسة تستمددهما من وحى السماء ، أو من إجماع أهل الأرض .

ولقد أفادت العربية كثيراً من جانبيها الديني والاجتماعي . واكتسبت مناعة وقتها حملات الخصوم والأعداء ، وحمتها من جموح التغيير والتبديل . وبقيت على الدهر بحيث أصبحت لغة قديمة وحديثة معاً ، «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» . إلا أن هذه القداسة كثيراً ما وقفت في طريق الإصلاح والتجديد ، واعترضت سبل النمو والتطور . فحبل بالحرام والحلال في أمور تتصل بمتن اللغة وأساليبها وكتابتها ووظيفتها ، كما قيل بهما في الحكم على أقوال الناس وأفعالهم . ومع هذا فالزمن يسير ، ولا بد أن تسير اللغة معه ، وربما كان لدعوى القداسة والحرمة أثر في التأنى في التجديد ، والتروى في الإصلاح ، مما يربط الحاضر بالماضي ويساير التطور دون طفرة .

٢ - والأدب حياة اللغة ، يساهم فيه المتحدث والكاتب ، الناثر والشاعر ، الخطيب والصحفي ، المذيع والممثل ، الأديب والعالم ، الشعب والخاصة ، فهو جملة الإنتاج الأدبي في لغة ما . يتأثر - دون نزاع - بالأحداث السياسية والظروف الاقتصادية والاجتماعية ، ويصور الحياة

(١) كلمة ألفت بمؤتمر الأدب العربي المعاصر في روما عام ١٩٦١

في شيء من التعديل .

الدينية والأخلاقية . يتلى بالحمود أحياناً ثم ينشط ويتحرك . يأخذ ويعطى ، فيتغذى من الآداب الأجنبية ويغذيها . وهو متنوع ، يختلف من عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى أخرى ، فهناك أدب قديم وأدب حديث ، أدب ريفي وأدب حضري ، أدب ديموقراطي وأدب أرستقراطي . والأديب الحق مبدع ومبتكر ، بقلر ما هو مقلد ومحاك ، يبتكر ألفاظاً وأساليب ، كما يبتكر أفكاراً وأخيلة . ينهج نهج القدامى ويحدو حذوهم ، في الوقت الذي ينافس فيه المعاصرين ويحاول أن يجدد مثلهم . وأنصار الأدب القديم أنفسهم لا يرضون أن تنمحي شخصيتهم ، وتقى أساليبهم فيمن سبقهم . وأعز شيء لدى الأديب حرية ، فيحرص على أن يكون حراً في تفكيره ، يرسل أحاسيسه ومشاعره كما تبدو له ، حراً في تعبيره بصوغ معانيه على النحو الذي يروقه . ولا يضيره أن يخرج أحياناً على بعض قيود النحو واللغة ، وربما فتح خروجه باباً لنحو ولغة جديدة .

وهكذا كان الأدب العربي ولا يزال ، تنوع بتنوع العصور ، وسار بسير الزمن ، علا وهبط ، قوى وضعف ، ومن الخطأ أن تقف به عند عصر بعينه ، أو أن نقصره على بيئة بذاتها . تأثر بالآداب الأجنبية وأثر فيها ، وكانت له حياة مستقلة وتاريخ متصل ، ويربأ أدباء العرب بأنفسهم عن أن يكونوا مجرد نقلة أو محاكين ، ويأبون إلا أن ينالوا حظهم من الأصالة والابتكار .

٣ - الأدب مادة اللغة ، منه يستمد منها ، وعليه يقوم نحوها وصرفها . وقد غنى الرواة قديماً يجمعه كما عنوا يجمع اللغة نفسها . وأبلوا في ذلك بلاء حسناً ، وإن لم يسلموا من الحشو والخطأ ، ولا سيما أن العرب في جاهليتهم كانوا يعيشون قبائل وجماعات ، لكل قبيلة لهجتها ونطقها ، وظروفها وبيئتها ، وأوضح ما يكون هذا الخلاف بين القبائل

العدنانية في الحجاز والقحطانية في اليمن ، فكانت تستعمل الكلمة الواحدة في عدة معان ، أو يعبر عن المعنى الواحد بألفاظ مختلفة باختلاف البيئات ، مما أدى إلى تباين المعاني للفظ الواحد وكثرة المترادفات ، وتعدد القراءات . وما إن فتحت الأقطار شرقاً وغرباً ، وتوطدت الصلة بالثقافات الأجنبية ، وبسطت الحضارة الإسلامية ألويتها . حتى أخذت العربية تتغذى بغذاء جديد لم يألفه العرب ولم يرهبوه . وكانت ثقتهم بأنفسهم كقيلة بأن يأخذوا الحديد على صورته ، أو يؤقلموه ويصوغوه نوعاً على حسب قواعدهم . واستمروا كذلك حتى جاء عصر الركود ، فكان الحمدود والإفلاس والتحرير والتحليل . ويوم أن بزغ عصر النهضة الحديثة ، استعادت العربية ثقتها بنفسها ، وبدأت تتقبل الألفاظ والتركيب الجديدة غير هيابة ولا مترددة .

عنى العرب عناية بالغة بجمع لغتهم وتسجيلها ، فتلقفها الرواة من البادية ، وأعدوا بذلك المادة الضرورية لوضع المعاجم اللغوية . ولا نظن أن لغة ما — قديمة أو حديثة — توافر لها من المعاجم ما توافر للعربية . ولا شك في أن هذه المعاجم غزيرة المادة كثيرة المعلومات ، وستبقى على الدهر معيناً لا ينضب لتوضيح غريب الكلمات وغامض النصوص . ولكنها تلتقي في عيوب مشتركة ، من غموض في الشرح ، وخطأ بعض التعاريف ، ولا سيما أنها قد عرضت لمواد تبعد نوعاً ما عن اللغة كالتاريخ والجغرافيا والحيوان والنبات ، وقد تغير اليوم وجه العلم . وكثيراً ما كرر بعضها بعضاً دون تنقيح أو تهذيب ، ويصرح صاحب لسان العرب ، أكبر معجم وصل إلينا ، بأنه لم يصنع شيئاً أكثر من أنه جمع ما ورد في تهذيب الأزهري ، وصحاح الجوهري ، بمحكم ابن سيده ، وحواشي ابن بري على الصحاح ، ونهاية ابن الأثير . وفوق هذا منهج هذه المعاجم ناقص ومعيب — ناقص لأنها وقفت باللغة عند حدود زمانية ومكانية ضيقة ، فققدت كثيراً من معالم الحياة والتطور . فهي توضح العربية في الجاهلية

وصدر الإسلام ، وتكاد تنكر ما عداها ، وبذا لا تمثل عصور اللغة كلها ، ولا العصر الذى وضعت فيه . ومنهجها معيب أيضاً لا تتوافر فيه شرائط فن المعاجم الحديثة من حسن الترتيب ، ووضوح الشرح ، ودقة المعنى ، والاستعانة بالصور والحرائط واللوحات . ففى الرجوع إليها عناء ومشقة ، وفى عرضها حشو واستطراد ، وأصبحت لا تواجه تماماً حاجة العصر ومقتضياته .

ولقد حاول بعض اللغويين منذ آخريات القرن الماضى تدارك هذا النقص ، فوضع البستاني « محيط المحيط » ، والشرتوتى « أقرب الموارد » ، والأب لويس معلوف « المنجد » . وهم — فيما يبدو — متأثرون بالمعجم الغربية الحديثة ، و« المنجد » بوجه خاص محاكاة صادقة « للمعجم لاروس الصغير » . وهو فى الواقع قاموس عملى ، سهل المأخذ ، غنى بوسائل الإيضاح ، ولا أدل على ذلك من أنه أعيد طبعه ست مرات فى أقل من عشرين سنة ، وفى الطبعة الأخيرة قسم كبير فى الأدب والعلوم ، على غرار « لاروس » ، إلى جانب القسم اللغوى . ولكن هذه المعاجم الحديثة لم تستطع التخلص من قيود الماضى ، ولم تجرؤ على أن تسجل شيئاً من لغة القرن العشرين ، واكتفت بأن تلخص المعاجم القديمة فى ترتيب أحسن ومنهج أقوم .

٤ — و يوم أن أنشئ « مجمع اللغة العربية » بالقاهرة عام ١٩٣٤ نص فى مرسوم إنشائه على أن من أهم أغراضه — « أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية » ، وقد أخذ نفسه بذلك منذ البداية . وكان من بين أعضائه المستشرق الألمانى « فيشر » الذى عنى بالمعجم العربى منذ أوائل هذا القرن ، ورغب فى أن يخرج على غرار معجم أوكسفورد التاريخى فيعمد إلى النصوص لتوضيح معانى الكلمات ، ويتبع تاريخها وتغير مدلولها ، وهى محاولة شاقة ، وشبه متعذرة الآن على الأقل ، لأن العربية أطول تاريخاً من الإنجليزية ، وأكثر مصادر ، ومن بين مصادرها ما فقد

أو ما لا يزال مخطوطاً. ومع هذا بذل « فيشر » فيها جهوداً مضنية ، وشاء أن يتوجها بأن يخرج « معجمه » تحت كنف المجمع اللغوي ورايته ، ولم يتردد المجمع في أن يجيبه إلى ما طلب ، وأن يمدّه بوسائل العون المختلفة . إلا أن الحرب العالمية الثانية وقفت في طريقه . ولم نلبث أن فقدناه بعدها بقليل ، وقبل أن يخرج « معجمه » إلى النور . ولم يبق من جهود أربعين سنة إلا جزائز غير مكتملة وغير مستوفاة ، يحتفظ بها المجمع في قاعة خاصة تحت تصرف الباحثين .

اضطلع المجمع إلى جانب هذا بوضع « معجم كبير » يستوعب اللغة في مختلف عصورها ، ومن أهم ما قرر في مقدمته أن اللغة ماضياً وحاضراً ، فلها ماضيها الموروث ، وحاضرها الحي الناطق ، ولا بد أن يلاحظ ذلك في وضع معجم جديد ، فيستشهد بالشعر والنثر مهما يكن العصر الذي أنشئ فيه ، وتثبت الألفاظ الطارئة التي دعت إليها ضرورات التطور ، وفرضها تقدم الحضارة ورفق العلم . ولا يزال المجمع يوالى جهوده المتابعة لإخراج هذا « المعجم الكبير » . (وقد أخرج منه الجزء الأول هذا العام سنة ١٩٧٠) .

عنى المجمع أيضاً منذ زمن بوضع « معجم بسيط » ، سهل التناول ، ينتفع به طلاب العلم ويسر عليهم تحصيل اللغة ، وتوفير له ما أراد ، وظهرت طبيعته الأولى ، ثم عدلت ونقحت ويرجى أن تظهر الطبعة الثانية قريباً . وقد أخذ يحظ وافر من فن المعاجم الحديثة ، فهو محكم الترتيب والتبويب ، يسير الشرح ، دقيق التعاريف ، يكتفي من الشواهد بما تدعو إليه الضرورة ، في غير غموض ولا تعقيد . يسجل ما استقر من ألفاظ الحياة العامة ، والمصطلحات العلمية الشائعة ، ويقر كثيراً من الألفاظ المولدة والمعربة الحديثة ، ويهجر الحوشى والغريب .

فالمعجم العربي في تجدد وتطور شبيه بتطور المعاجم الغربية ، يأخذ بأحدث مبادئ الفن المعجمي ويسر اللغة ، يراد به أن يضع ألفاظ

القرن العشرين إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام، وأن يهدم الحدود الزمانية والمكانية التي أقيمت خطأ بين العصور اللغوية المختلفة ، وفي هذا ما يثبت أن في العربية وحدة تضم أطرافها ، وحيوية تستوعب كل ما اتصل بها وتصوغه في قالبها . وقد بذلت في ذلك جهود لا بأس بها ، وظهرت معاجم مصطلحات إلى جانب المعاجم اللغوية ، ولكن لا يزال الأمر يتطلب جهوداً أخرى وقسطاً أوفر من الجراحة والتحرر .

٥ - اللغة تعبير عن وجدانات وأفكار بواسطة أصوات ودوال أقرها المجتمع وأخذ بها، فعناصرها وجدان وعاطفة، فكر ورأى ، بيئة ومجتمع ، أو إن شئت مدلولات ودوال وكلها متغيرة ومتحركة ، فالوجدانات والعواطف في نشوء وارتقاء لدى الأفراد والجماعات ، والأفكار تنمو بنمو العلم والدراسة ، وتتجدد بتجدد الكشف والاختراع . والحياة الاجتماعية في تبدل وتغير ، فمن همجية إلى أخذة في التحضر ، ومن نصف متحضرة إلى موعلة في الحضارة والمدنية ، وكلما اكتملت حضارة أمة تعددت مراقفها ، وتنوعت اتجاهاتها وكثرت حاجاتها . وأضحى لازماً أن تسايرها في كل ذلك لغتها ، فتزيد مفرداتها ، وتنوع تراكيبيها ، وتسمو أساليبها ، وتباين فتون القول فيها .

وسائل إنهاض اللغة وتطويرها كثيرة ، أخصها الوضع اشتقاقاً وتجاوزاً وارتجالاً ، إطلاق القياس ليشمل ما قيس من قبل وما لم يقس ، تحرير السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما نسمع اليوم من طوائف المجتمع كالجدادين والتجارين والبنائين ، التسليم بالتعريب والاعتداد بالألفاظ المولدة وتسويتها بالألفاظ المأثورة . وقد أخذ قديماً بمختلف هذه الوسائل فاستباح العرب الوضع في مختلف صورته ، وقبلوا كلمات أجنبية أضافوا بها ثروة جديدة إلى لغتهم ، فمثلاً يستعمل «الأعشى» كلمة «شاهنشاه» ، وامرؤ القيس كلمة «السجنجل» ، وفي الإمكان حصر

الكلمات المعربة فيها وصلنا من أدب جاهلي . وفي «القرآن» كلمات معربة كثيرة ، مثل زنجيل وسلسيل . أما الاشتقاق والقياس فلم يكن هناك

ما يقيدهما ، وكان العربي ينطق على سليقته فكان نطقه حجة ، وساعد الفتح والاختلاط على التعريب والاشتقاق معاً ، ودفعت إليهما الترجمة وانتشار العلم . وهناك ألفاظ عربية أو معربة إسلامية لم تعرف في الجاهلية من قبل ، ولم يستنكرها أحد أو يرفضها . ويوم أن ضاقت العقول بدأ التحليل والتحرير ، فأصبح التعريب ممنوعاً ، وحرم الوضع على المتأخرين .

ولقد استطاع « مجمع اللغة العربية » أن يفك كثيراً من هذه القيود ، ويطلق سراح اللغة ، فقال بالتضمين ، والنقل ، والمجاز ، والتعريب ، وأجاز الاشتقاق من أسماء الجواهر والأعيان ، كما أجاز النسبة إلى جمع التكسير . وتوسع في المصادر الصناعي ، وأقر صيغاً للدلالة على الحرفة والمرض والصوت . وفتح في اختصار ، باب الاجتهاد في اللغة ، وكان موصداً من قبل . ولم يقنع بأن يسجل ما أقره الأدباء والعلماء ، بل شاء أن يوجه نحو تطوير اللغة والنهوض بها . وكان لتوجيهه أثره ، وتبارى الكتاب في التجديد والابتكار . والواقع أن مستحدثات الحضارة والعلم لا تنقطع ، ولا حياة للغة إلا إن واجهتها ، وعرفت كيف تؤديها على وجهها .

٦ - لم تخل الكتابة - بدورها - من طابع ديني ، فقليل إنها من وحى إلهي ، عزاها المصريون إلى الإله توت ، واعتقد العبرانيون أن موسى تلقاها عن الله ، وقال بعض مؤرخي العرب إنها توقيف من آدم ، ولا تزال حتى اليوم مرتبطة بالسحر في أرقى الشعوب حضارة . وإذا كان للكلمة الملفوظة قوة سحرية ، فالكلمة المكتوبة بها أولى ، ومن ثم كان الكتابة الأولى من السحرة . وما إن اختلطت الكتابة بالحياة المدنية وصارت في متناول عامة الناس ، حتى أخذت تتطور بتطور الزمن . قامت أولاً على الصور والأشكال . ثم تحولت إلى رموز وحروف وإن لم تفقد اعتبارات للرسم والفنون الجميلة . وأصبحت الكتابة لغة إلى جانب لغة النطق ، ومن بيتنا من يتفاهمون اليوم بالكتابة أكثر مما يتفاهمون بالكلام . ولا سبيل

لتعليم بدون قراءة وكتابة ، والصورة الذهنية لكلمة أكثر ارتباطاً برسمها منها بنطقها .

وقديماً قال قولتير إن « الكتابة صورة الصوت ، كلما كانت أكثر شبيهاً به كانت خيراً » ، فالكتابة المثلّية هي التي لا تدل بالحرف على أكثر من صوت ، ولا تضع للصوت الواحد أكثر من حرف ، ولم فصل إليها في لغة ما . ففي اللغات الحية جميعها ما يكتب ولا ينطق ، وما ينطق ولا يكتب ، وفيها حروف تؤدي عدة أصوات ، وأصوات تؤدي عدة حروف . ويزيد الأمر تعقيداً تفنن النحاة والصرفيين ، وبعض المخلفات التاريخية التي قضت بكتابة كلمات على وجه معين دون أن يتصل ذلك بنطقها . وكلما اتسعت مسافة الخلف بين اللغة الدارجة والفصحى ، تعقدت مشكلة رسم الحروف ، ويحاول المصلحون دائماً تدارك هذا النقص . وكثيراً ما تعذر عليهم ذلك ، تحت ضغط العرف والتقاليد ، ولأن لغة النطق أسرع تطوراً في حين أن لغة الكتابة أكثر محافظة .

والخط العربي نبطي الأصل ، يشبه الكتابة النبطية في رسمها ، واتخاذ شكلين للحرف في أول الكلمة وآخرها ، واستعمال الفواصل ، وربط الحروف بعضها ببعض . نشأ ونما في الحجاز حيث التجارة والحضارة والسيادة ، ثم انتقل إلى أجزاء الجزيرة الأخرى . وكانت حروف الهجاء ثمانية وعشرين ، مرتبة في أغلب الظن على حسب الترتيب الأبجدي ، وقد حث النبي الأُمّي على تعلم الكتابة ، وقبل أن يفتدى أسرى بدر أنفسهم بأن يعلم كل واحد منهم عشرة صبيان مسلمين الكتابة ، وكان وحي كتاب كثيرين . ولكن الكتابة لم تنتشر إلا بعد أن مصّرت الأمصار ودوّنت الدواوين ، وتبارى الخطاطون في إجادة الخط ، وكان منهم الوزراء والمحدثون والمؤرخون . وتفتتوا فيه فجعلوا منه نسخاً ، وثلاثاً ، ورقعة ، وكوفيّاً ، وفارسيّاً ، وأصبح في مقدمة الفنون الجميلة العربية . وديجت به المصاحف ، وزينت الحوائط والسقوف ، وأعدت منه لوحات آية

فى الجمال . وتنافس الملوك والأمراء فى أن يتوافر لديهم أحسن الخطاطين وأن يقتنوا أروع ما أنتجوا . ولم يقف الخط العربى عند جزيرة العرب وحدها ، بل امتد إلى بلاد أخرى فى آسيا وإفريقيا وأوربا ، وسار مع الإسلام أينما سار . فاستعمله الفرس والترك والهنود والملايو والمصريون والمغاربة ولغات مختلفة من إفريقيا ، ويكاد يصعد عدد الشعوب التى تستخدمه إلى نحو ٣٠٠ مليون نسمة .

ومنذ عهد مبكر ظهر أن الحروف وحدها لا تكفى فى التعبير عن الأصوات وضبط النطق ، خصوصاً بعد أن اختلط العجم بالعرب وضعفت السليقة ، وبدأت تبعد المسافة بين اللغة الدارجة والفصحى . والعربية لغة إعراب ، بتغير فيها معنى الكلمة بل معنى الجملة بتغير النطق ، وكما تحدث أبواب الفعل الثلاثى ومصادره من لبس ، وقد تختلط الأسماء المبنية والمعربة والمصرفية والممنوعة من الصرف . فالتجئ إلى الشكل بوضع نقطة فوق للفتحة ، ونقطة أسفل للكسرة ، ونقطة على شال الحرف للضممة ، وأهمل السكون ثم تحولت هذه النقط إلى حروف صغيرة ، ولوحظ كتابتها بلون غير لون الحروف نفسها . وزيادة فى الضبط وتفرقة للحروف المتشابهة رسماً بعضها عن بعض استخدم الإعجام ، فنقطت الجيم والحاء مثلاً وأهملت الحاء ، وعلى أساس هذا الإعجام رتب حروف الهجاء على النحو المألوف اليوم . وعلى هذا عدل الخط العربى وهذب وضبط ، تبعاً لحاجات العصر ومقتضياته .

ولا شك فى أن رسم المصحف وضبطه كان الشغل الشاغل ، ولم يحس أبو بكر وعثمان عند جمعهما للقرآن بحاجتهما إلى نقط أو شكل ، ولكن ما لبث المسلمون أن تبينوا ضرورة ذلك . وكتب القرآن برسم أريد به أن يكون تعبدية ، وإن لم يتفق مع الهجاء وقواعد الإملاء . وأصبح أثراً تاريخياً اجتمع لنا به كتابتان : إحداهما قرآنية ، والأخرى غير قرآنية . وزاد الأمر تعقيداً قواعد رسم الهمزة والألف اللينة التى يلاقى فيها المبتدئون

من التلاميذ بل المتهمون عتاً شديداً . وهناك أعلام وكلمات أعجمية معربة تشتمل على أصوات لا وجود لها في العربية ، وكثيراً ما خلط العرب في نطقها ، ولعل ابن خلدون من أقدم من تنبهوا إلى ذلك وحاولوا معالجته . وفيما عداه لم تلفت هذه الصعاب النظر ، وبقيت الكتابة العربية وكأنها براء من كل عيب ، لها قداسة تحول دون التفكير في تهذيبها وإصلاحها .

٧ - وفي أخريات القرن الماضي أثرت صعاب الكتابة العربية ، على غرار ما أثر حول الكتابة الفرنسية والإنجليزية في الغالب ، لا سيما أن الشقة قد بعدت بين الدارجة والفصحى بعداً دفع فريقاً من الناس إلى الدعوة إلى العامة والانتصار لها . وفوق هذا في إصلاح الكتابة استجابة لمقتضيات تعليم الشعب ومحاربة الأمية ، ذلك لأن الكتابة لم تعد بعد وقفاً على أرستقراطية فكرية أو اقتصادية كما كانت في الماضي ، بل أصبحت حقاً مقررراً للجميع ، وينبغي تيسيرها ما أمكن . والناس عادة أمام الإصلاح فريقان : محافظون يرون أن ليس في الإمكان أبدع مما كان ، ومجددون يلاحقون سير الزمن ، وهؤلاء بدورهم متطرفون يأبون إلا أن يقطعوا الشوط دفعة واحدة ، أو معتدلون يذهبون إلى أن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة ، ولا بد أن يسير الإصلاح في تدرج وهودة . ولقد صادفتنا في نصف القرن الماضي مشاكل لغوية متعددة وفي مقدمتها - دون نزاع - مشكلة الكتابة التي كانت ولا تزال موضع أخذ ورد .

وقدمت لها حلول شتى تلخص في اتجاهين رئيسين يرمى أحدهما إلى إحلال اللاتينية محل الكتابة العربية ، ويحاول الآخر أن يعدها على نحو يعالج ما فيها من غموض أو لبس . وليس القول بالحروف اللاتينية جديداً ، فقد عرض في أخريات القرن الماضي ، وأكده داود الجلي في العقد الأول من هذا القرن ، وشجعت عليه تجربة الأتراك وإن اختلف

ولم يجمع لغتهم كثيراً عن العربية . وظهر في عام ١٩٦١ كتاب « يارى » ، الذى شاء به الأستاذ سعيد عقل أن يطبق الحروف اللاتينية على الكتابة العربية تطبيقاً عملياً . ولكن أحداً لم يدرس هذا الموضوع دراسة المرحوم « عبد العزيز فهمى » عضو مجمع اللغة العربية ، وليس فى مكتبة كثيرين أن يدافعوا عنه دفاعه ، ومع ذلك لم يحظ بالقبول .

والواقع أن « مجمع اللغة العربية » غنى منذ ربع قرن بتيسير الكتابة العربية ، وأعد جائزة مالية لأحسن اقتراح فيها . ووصلته عشرات الاقتراحات التى قضى زمناً فى بحثها ، ولم يرتض واحداً منها . وفى مقدمة ما عرض عليه مشروع « عبد العزيز فهمى » ، الذى وقف عليه دورة كاملة من دورات مؤتمره . ودون أن ندخل فى تفاصيله ، نكتفى بأن نشير إلى أنه لا يقنع بمجرد إبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، بل يلاحظ أن هناك أصواتاً خاصة بالعربية ، ويحاول أن يؤديها بحروف لاتينية مركبة على نحو ما صنع المستشرقون من قبل . وإذا كنا « نفهم لنقرأ » على غير ما ينبغى ، فيزعم أن مشروعه ينتهى بنا إلى الوضع السليم وهو أن « نقرأ لنفهم » ، وهو بهذا يصوب إلى معالجة مشكلتى الكتابة والقراءة معاً . ولقد رد عليه داخل المجمع وخارجه ، ومن أهم ما أخذ على اقتراحه أنه يقطع الصلة بالماضى لمستقبل غير موثوق به . فإن الحروف اللاتينية لا تتلاءم مع طبيعة العربية لغة الإعراب والصرف ، هذا إلى أنها أقل اختزالاً من الحروف العربية وتشغل حيزاً أكبر ، ونحن نعيش فى عصر السرعة ، ولها أخيراً صعوباتها ، وليس ثمة كتابة تخلو من صعوبات . وما صنعه الأتراك لا يقاس عليه لأن لغتهم أضيق مجالاً وأقل استعمالاً ، وماضيتها لا يذكر فى شىء بجانب ماضى اللغة العربية ، وليست لها كتابة خاصة بها تحاول العدول عنها . وجاء أخيراً كتاب « يارى » دليلاً عملياً على أن التجربة اللاتينية غير ناجحة ، فإنه لا يقرأ ولا يفهم قبل أن يعرب . أما المقترحات الأخرى فتبقى كلها على الحروف العربية معدلة رسمياً ،

أو مدمجة للشكل كما هو في جسم الحرف ، أو مستعملة حروف العلة بدلا منه . ولم يكن غريباً أن يرفض كل هذا ، لأنه فضلاً عما فيه من تنكير لا يحقق شيئاً من التيسير .

واستمر المجمع يقلب الأمر على وجوهه ، وآثر أن يدع مؤقتاً الكتابة اليدوية ، ويشغل خاصة بحروف الطباعة والآلات الكاتبة ، وتبين له أن في الإمكان اختصار صور الحروف بتمثيل الحرف بصورة واحدة ما أمكن على اختلاف مواقعه من الكلمة ، مع الاحتفاظ بطبيعة الخط العربي وفنه وتجنب المباعدة بين القديم والجديد . ولم يفته أن يعالج صور الهمزة وكتابة الأرقام وعلامات الشكل والترقيم ، وأدخل عليها كثيراً من الاختصار والتحسين . وانتهى إلى طريقة تهبط بصور الحروف ولو احققها للمجمع المشكول شكلاً كاملاً إلى ١٣٥ ، بعد أن كانت تراوح بين ٣٠٠ و ٤٧٠ بحسب الجمع الآلى واليدوى .

وهذا ولا شك اختصار يوفر كثيراً من الجهد والمال ، وبه يصبح صندوق الطباعة العربية قريباً من صندوق الطباعة بالحروف اللاتينية التى يبلغ عددها ١١٥ . وقد طبقت هذه الطريقة بالفعل فلم تستكرها العين ، ولم تخل من الجمال . وأسماها خط النسخ المستعمل في الطباعة ، والمألوف لدى كل من يكتبون بالعربية .

وتيسيراً للقراءة رأى المجمع أن يلتزم الشكل في كتب مراحل التعليم العام على درجات متفاوتة وفي حدود قواعد واضحة ، وأن يوضع في مكان ثابت من الحروف تألفه العين ولا يختل به توازن السطور ، وأن يوضع النقط في موضع ثابت نفيّاً للاشتباه .

وكم دعا المجمع إلى تيسير النحو والإملاء ، ووضع في ذلك مشروعات محددة . ونادى من قديم بوضع علامات للدلالة على أصوات الحروف التى لا مقابل لها في العربية ، وحاول رسم طريقة لكتابة الأعلام الأجنبية .

ودعوات كهذه إن لم يستجب لها اليوم ، فهي آخذة طريقها لا محالة ،
ومن يلزم فقد يكون في تيسير الكتابة المقترح ما يؤدي إلى اختصار أعظم ،
أو ما ينتهي إلى كتابة الحروف منفصلة بحيث لا تأخذ إلا شكلا واحداً ؟
وهناك اتجاه عام يؤثر التدرج ويأبى الطفرة ، لأن من الخير أن يربط
الحاضر بالماضي ، وابتكار طريقة جديدة للكتابة إن فرض على شعب
بوسيلة ما ، فلا سبيل لتطبيقه على شعوب أخرى لا تقرأه . ونحن جميعاً
عبء الإلف والعادة ، ولا نزاع في أن الجماعات والأفراد تخضع لهما
أكثر مما تخضع للعقل والمنطق .

الأدب العربي المعاصر

يسير الأدب واللغة دائماً في ركب الحضارة ويحملان طابعها :
وأدبنا الحديث ثمرة نهضتنا وصدى ليقظتنا ووعينا ، تعددت موارده .
وتنوعت ثماره . وأخذ ينافس الآداب الأخرى ، ويقف معها جنباً إلى جنب .

وأذكر أنه منذ عشر سنوات وقفت مجلة Preuves الفرنسية على الأدب
العربي ندوة من ندواتها التي تعقد بباريس يوم الثلاثاء من كل أسبوع ،
وأشرف عليها الأستاذ Le Serf أستاذ الأدب العربي بمدرسة اللغات الشرقية
وكان موضوعها : « هل يمكن أن يعد الأدب العربي بين الآداب العالمية ؟ » .

وبعد هذه الندوة بيضعة أشهر ، عقدت في روما حلقة حول « الأدب
العربي المعاصر » ، واشترك فيها بعض المستشرقين ، وعدد من كبار أدباء
أوروبا وأمريكا ، ونخبة من الكتاب والشعراء في العالم العربي .

وفي هذه الحلقة وتلك الندوة ، أثارت مشاكل كثيرة حول أدبنا في
لفظه ومعناه ، في أسلوبه وموضوعه ، في نثره ونظمه ، في قصصه ورواياته ،
في إذاعاته ومسرحياته ، في صلته بالفكر والثقافة العالمية ، في مدى استجابته
لمبتكرات العلم والحضارة ، في تأثيره بالمذاهب والنظريات الحديثة ، أدبية
كانت أو اجتماعية أو سياسية ، في حرية الأديب العربي وقدرته على الخلق
والابتكار .

وقد عوبلت هذه المشاكل على اختلافها في حلقة روما خاصة
علاجاً مستفيضاً ، وأثيرت حولها مناقشات ممتعة :

ولا نزاع في أننا صنعنا أدباً عربياً ، يعبر عن بيئتنا ومجتمعنا ،
ويترجم عن إحساسنا ووجداننا ، أدباً فيه يسر وطلاقة ، وبيان ووضوح .
يصوب إلى الهدف في دقة ، ويحاول أن يصل إلى الغاية من أخصر طريق .
أدباً يأخذ عن العلم والتكنولوجيا ، ويصور المذاهب والإيديولوجيات المعاصرة
ويلتقي مع عصر السرعة الذي نعيش فيه . وأصبحنا نفرق بين أدب
حديث وآخر قديم ، بين أدب معاصر وأدب كلاسيكي .

ولأدبنا المعاصر خصائصه ومميزاته ، فهو دون نزاع أكثر تنوعاً من
الأدب القديم ، فيه أدب القصة والمسرح ، والإذاعة والسينما ، إلى جانب
ألوان الأدب التقليدية ، من بحث وتأليف ، وتحطب ورسائل ، ونقد
ومقالة . وهو دون نزاع أيضاً أكثر اتصالاً بالجمهور ، عن طريق
الصحافة والإذاعة ، والمسرح والسينما . وإذا لاحظنا أننا نعيش في عصر
نشر التعليم ، ومحاربة الأمية ، أدركنا أن جمهور الأدب يزداد عاماً بعد
عام ، بل يوماً بعد يوم . يزداد كلما فتحنا مدرسة أو فصلاً جديداً ،
يزداد كلما نظمنا إذاعة أو أقمنا داراً للمسرح أو السينما . والثقافة الشعبية
واجب هام من واجبات الدولة اليوم ، ترعاها وتغذيها بأكل غذاء .

وقد تضافرت على خدمة أدبنا المعاصر معاهد متنوعة ، ومراكز ثقافية
متعددة ، وكنا بالأمس لا نتحدث إلا عن بعض العواصم الأدبية الكبرى ،
أمثال بغداد ودمشق ، والقاهرة والقيروان ، أما اليوم فنستطيع أن نضم إليها
عشرات المدن العربية الأخرى التي تزخر بدراسة الأدب وتولع به . . .
ويمكن أن نضم إليها مدناً أخرى غير عربية في آسيا وأوروبا وأمريكا .
ففي باكستان والهند وأندونيسيا يدرس الأدب العربي ، كما يدرس في
روسيا وألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا - ويدرس في كثير
من جامعات الولايات المتحدة ومعاهدها ، كما يدرس في بعض بلاد
أمريكا اللاتينية ، ولأدب المهجر شأن في نهضتنا الأدبية الحديثة .

ولم يقطع الأدب المعاصر شوط النهوض في يسر وسهولة ، فقد قامى

ما قامى من استعمار طاغ ، واستبداد متحكم ، وجمود قاتل ، وجهل متفش . بدأ يناضل فى أخرىات القرن الماضى ، ووثب وثبة قوية فى الخمسين سنة الأخيرة : وحياته فى أن يواصل السير والحركة ، ولا يتوقف عن النضال يوماً . ومن أهم ما عانى ذلك الصراع الدائم بين المحافظة والتجديد ، بين الاتباع والابتداع . وسر نجاحه فى تلك المحاولة الجادة والمستمرة التى تهدف إلى المواءمة بين الأمس واليوم ، والتوفيق بين القديم والجديد ، مما لم يتوافر لكثير من الآداب الأخرى . فهو فى آن واحد سلبى وتقدمى ، محافظ ومجدد ، ومن الحرق أن نحاول اليوم الخروج على هذه الموازنة الدقيقة التى تربط الحاضر بالماضى ، ونتخذ من تراث الآباء عدة للمستقبل ، لنجدد ما شئنا ولكن فى ضوء هذه الحدود .

• • •

يتساءل أحياناً عن منزلة الأدب العربى بين الآداب العالمية الكبرى ، وقد لا تخلو الإجابة عن هذا السؤال من هوى زائف ، أو تعصب أعمى . والأمر أسهى من أن يحمل هذا الحمل . وجدير بنا أن نتفق أولاً على مدلول الأدب العالمى ، وعندى أنه ذلك الأدب الذى يعالج الإنسان والطبيعة معالجة فيها أصالة وابتكار ، فهو أدب مبدع خلاق يسمو على الزمان والمكان ، ويصبح ملك الإنسانية جمعاء . ينشده عشاقه ، ويسمى وراءه طلابه ، دون بحث عن جنس أو وطن . وعلى هذا ليس ثمة أدب عالمى فى كل ثماره ، ويوم أن يتوافر لأدب إنتاج يتسم بالإبداع والبراعة عدّ لا محالة فى مصاف الآداب العالمية ، والأثر الفنى الباهر فى غنى عن الحسب والنسب والاعتداد بالجنس والوطن ، وله من قيمته للذاتية ما يؤهله للذيع والخلود .

ولقد كان لنا بالأمس أدب فاق كل الآداب المعاصرة ، وأمدّها بفيض منه ، فغذى الأدب الفارصى والتركى ، وزود الأدب السرىانى والعبرى ، وامتد إلى اللغات الأردية والهندية . وبزّ بوجه خاص الأدب اللاتينى الذى

ساد أوروبا نحو عشرة قرون ، وأغدق عليه من عماره ، وفتح أمامه آفاقاً جديدة ، وكان له شأن في نهضة أوروبا العلمية والأدبية .

وينحوا أدبنا اليوم هذا المنحى مرة أخرى : فيحاول أن يجدد وينوع ، وأن يبدع ويبتكر ، وأن يسهم في ميدان الثقافة العالمية - واستطاع أن يحقق في نصف قرن : ما لم تصل إليه آداب أخرى في أجيال متلاحقة - وأضحى لا يقنع بمجرد الأخذ عن الآداب الكبرى ، بل طمع في أن يعطيها ، وقد أعطاها فعلاً ، فترجم قلد من ذخائره إلى عدة لغات أجنبية . وهو مع هذا كله لا يزعم مطلقاً أنه بلغ الغاية ، ولا يزال أمامه آفاق يفتحها وميادين يغزوها ، وصعاب يذللها . ونظرة إلى الوراء قليلاً كفيلة بأن تطمئننا إلى أنه يسير إلى الأمام دائماً ، وأن الأخذ عنه في زيادة مطردة .

خاتمة

غنى الباحثون بالدراسات اللغوية عناية كبيرة منذ النصف الأخير من القرن الماضي ، وعالجوها من جوانب مختلفة : بين فيلولوجية وتاريخية ، ميكولوجية واجتماعية . ونالت العربية حظا غير قليل من هذه العناية ، فربطت بأخواتها السامية ، وكشف عن كثير من لهجاتها القديمة والحديثة ، وأصبحنا نؤمن بأن اللغة ظاهرة اجتماعية تسير بسير الزمن ، وتتطور بتطور المجتمع . ولم يصل هذا الإيمان إلى درجة من اليقين قلر ما وصل إليه اليوم ، لأننا نلمس سير لغتنا معنا ، ونحن نعيش في عصر السرعة ، ونرى ونسمع ما يدخل فيها من ألفاظ وتراكيب جديدة ، ولتدها العلم ، ودعت إليها ظروف الحضارة . وما دام الفكر في تجدد ، فلا مناصر من أن تتجدد اللغة معه ، ولا بد لكل فكرة جديدة من لفظ يؤديها .

واللغة الحاملة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة ، ولا تستطيع أن تؤدي وظيفتها أداء كاملا . وجمودها في الغالب صدى لجمود الناطقين بها ، فإن تحركوا تحركت معهم لا محالة . ولم يبق محل لأن نقول « بلغة مثالية » لا تقبل التعديل ولا التبديل ، تلك فكرة بالية ولا يمكن الأخذ بها . هناك عصور مزدهرة في الأدب واللغة ، وعلينا أن نحاكها ونفيد منها ، وفي وسعنا أيضا أن نضيف إليها ونجدها . وتلك مهمة الأدباء واللغويين والعلماء والفنيين ، فهم مطالبون دائما بأن يبتكروا ويجددوا ، وعليهم أن يملأوا العربية حياة وقوة ، كي تصمد في الصراع الحضاري واللغوي الذي نعيش فيه اليوم ، وتستعيد مجدها بين اللغات العالمية الكبرى .

وفي طبيعة العربية ما يعينها على هذا الصراع ، فهي لغة اشتقاقية ،

وفي الاشتقاق ما يكسبها مرونة ومناعة في آن واحد ، وعن طريقه يمكن أن نخلق ألفاظًا جديدة تنمي اللغة وتسد الحاجة . ومن الخير أن نتوسع فيه ما أمكن ، فنفك بعض قيوده ، ونشتق مما قيل إنه لا يشتق منه . وهذا ما أخذ مجمع اللغة العربية نفسه به منذ نشأته ، وكلما توسعنا في الاشتقاق استغنينا عن العamy والأعجمي . ولا محل لأن نغلق باب القياس في اللغة ، وإن قال بذلك قوم ، فإنما يغلقونه على أنفسهم . وفي وسعنا أن نقيس كما قاس الأقدمون ، وأن نقعد القواعد مثلما قعدوا . وباب الاجتهاد مفتوح في التشريع واللغة على السواء ، ما دام يضطلع به من هو أهل له .

وإن عز علينا أن نقيس أو أن نشق ، فلا بأس من أن نعرب ونتبنى بعض الألفاظ الأجنبية . واللغات يأخذ بعضها عن بعض دائماً ، أخذت قديماً ، ولا تزال تأخذ حديثاً ، وما تأخذ ثروة مستحدثة تضاف إلى الثروة الموروثة . ولا نظن أحداً يرفض التعريب اليوم مادامت تدعو إليه حاجة ، وتقضي به ضرورة ، والأمر المعيب إنما هو الإسراف فيه عن جهل أو كسل ، وقد حاول مجمع اللغة العربية أن يضع له بعض القيود والضوابط .

تلك هي القضايا اللغوية الكبرى التي دارت حولها هذه البحوث ، وقد حاولنا تطبيقها في ميدانين هامين من ميادين اللغة ، وهما المصطلح العلمي ، وفن المعجمات ، وللعلم والفن لغة وثيقة الصلة بلغة الأدب ، وهي بدورها في تطور مستمر ، وتطورها اليوم مشاهد ملموس ، وهي في تطورها خاضعة لما قررنا من مبادئ ، فللعالم أو الفنان كامل الحرية في اختيار اللفظ الذي يرتضيه لأداء الحقيقة العلمية أو الفنية ، ولكن عليه أن يبحث عنه أولاً في الفصحى ، فإن لم يجد استعان بالعامية دون خروج على أصول العربية ، وإن عز عليه ذلك لجأ إلى التعريب ، نزولاً عند حكم الضرورة ، ورغبة في أداء المعنى أداء صادقاً .

وكان لا بد للمعجم اللغوي أن يتطور أيضاً في مادته ومنهجه ، فتضاف إليه ألفاظ خلا منها ، وترتب أبوابه ترتيباً أنظماً وأيسر ، وتصاغ تعريفاته صياغة واضحة دقيقة ، تعين على الفهم ، وتتفق مع ما انتهى إليه العلم من آراء ونظريات . وقد خطا المعجم العربي خطوات فسيحة في القرن العشرين ، وأصبح لا يختلف عن كثير من المعجمات الأوروبية الحديثة في ضبطها ودقتها . وأسهم مجمع اللغة العربية في ذلك بنصيب كبير ، فرسم منهج التأليف المعجمي في عناية . وطبقه في معجميه « الوسيط » . و « الكبير » . وينبغي أن يعبر معجم القرن العشرين عن اللغة في مختلف عصورها ، فيضم ألفاظاً حديثة إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصلى الإسلام ، ويشتمل على قدر من المصطلحات العلمية والفنية ، ويلتزم ترتيباً سهلاً ، فترتب كلماته ما أمكن على حسب نطقها لا على حسب تصريفها . ومشكلة التبويب من صعوبات المعجم العربي ، وقد بذلت فيها في نصف القرن الأخير جهود متلاحقة ، انتهى بعضها إلى الأخذ بالترتيب الأبجدي الصرف دون مراعاة لمادة لغوية أو تصريف . ونحن نرحب بالتيسير دائماً ، ولكنه قد يؤدي أحياناً إلى عكس المراد منه ، وهو هنا لا يتلاءم مع طبيعة العربية ، ولكل لغة خصائصها ومميزاتها ، وما يصلح لواحدة منها قد لا يصلح للآخرى .

وأما الأدب فلم تقف عنده طويلاً ، واكتفينا بأن نشير منه إلى جانبين اثنين تبدو فيهما فكرة التطور واضحة ، وهما الشعر والقصة . وقد تطور الشعر العربي من قديم ، تطور في لفظه ومعناه ، كما تطور في أخيلته ومبناه . والأوزان الشعرية متنوعة ومتجددة ، والعروضيون وحدهم هم الذين يأخذون بحور الخليل مأخذ القوالب الجامدة . أما الشعراء فيعتدون بعقريتهم ، ويحرصون على حريرتهم في تجديدهم واختراعهم ، ومنهم من لا يعرف العروض مطلقاً ، والموشحات — مثلاً — لون من ألوان الشعر

ابتدعه الأندلسيون ، وتفتتوا فيه كل التفنن . والشعر الشعبي باب هام من أبواب الأدب ، ولا يقف عند بحور الخليل وأوزانه . « والشعر الحر » ، الذى دار حوله جدل طويل ، لون آخر لا نستطيع إنكاره جملة ، وإلا أنكرنا على الشاعر حقه فى الابتكار والاختراع ، ولا نستطيع أن نقبله على علاقته ، لأننا متفقون على أنه لا شعر إلا حيث الخيال المبدع والوزن الموسيقى .

والقصة باب كبير من أبواب الأدب ، عرفت فى الآداب القديمة ، وبلغت القمة فى الآداب الحديثة . وفى الأدب العربى القديم جانب قصصى ، يمكن أن يعد منه تلك الأقاصيص التى وردت فى بعض كتب الأدب الكبرى « كالأغانى » ، « والأمالى » ، و « العقد الفريد » . والمعلقات فى قسط كبير منها ضرب من القصص المنظوم . ويوم أن اختلط العرب بالأمم الأخرى تأثروا بآدابها ، ونقلوا عنها قصصاً هامة مثل « كليله ودمته » و « ألف ليلة وليلة » . وابتكروا ألواناً من القصص الأدبى خاصة بهم كالمقامات والرحلات ، وفى مقدمته « مقامات » بديع الزمان والحريرى ، و « رحلة » ابن جبى وابن بطوطة ، إلا أن القصة لم تبرز فى الأدب العربى بروعها فى الآداب الأخرى ، وكان لا بد أن نتظر إلى القرن العشرين ، لكى تأخذ القصة مكانتها فى أدبنا المعاصر . واستطعنا أخيراً تحت سنة التطور أن نضع قصصاً لا تقل بهاء وروعة عن بعض القصص الأجنبية ، فيها تحليل تاريخى ونقد اجتماعى ، فيها وصف لأماكن وبقاع وتصوير لبعض الطبائع والحصال ، فيها علم وفلسفة وفن حضارة . تبرز الخيال بالواقع ، وتكشف عن مكنون الصدور ونخى الطباع . وأصبح لدينا أدب قصصى يؤخذ عنه كما نأخذ عن الآداب الأخرى .

الفهرس

صفحة	
٥	إيضاح
٧	الباب الأول : في اللغة
٨	١ - مجمع اللغة العربية والأكاديمية الفرنسية
١٦	٢ - الفكر واللغة
٢٤	٣ - اللغة المثالية
٣٠	٤ - تطور اللغة
٣٤	٥ - القياس في اللغة
٣٨	٦ - التعريب
٤١	٧ - منطق أرسطو والنحو العربي
٥٤	٨ - العربية بين اليوم والغد
٥٩	٩ - العربية بين اللغات العالمية الكبرى
٦٣	الباب الثاني : في المصطلح العلمى
٦٥	١ - لغة العلم
٧٠	٢ - مدى حق العلماء في التصرف في اللغة
٨١	٣ - نشأة المصطلحات الفلسفية في الإسلام
٩٤	٤ - المصطلحات العلمية المعاصرة
١٠١	الباب الثالث : في المعجمات
١٠٣	١ - فن المعجمات
١٠٨	٢ - المعجم العربى في القرن العشرين

صفحة

١١٨	٣ - المعجم الأيجدى
١٢١	الباب الرابع : فى الأدب
١٢٣	١ - الشعر
١٢٨	٢ - القصة
١٣٥	٣ - الأدب العربى تجاه مشكلتى اللغة والحرف
١٤٨	٤ - أدبنا المعاصر
١٥٢	خاتمة

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٦٣٤٧/١٩٧٠

مطابع دار المعارف بمصر

سنة ١٩٧٠

تقدم

الكتاب رقم ٤٤ في « ذخائر العرب »

المعارف

لابن قتيبة

أبي محمد عبد الله بن مسلم
تحقيق الدكتور ثروت عكاشة

أوفى إصدارة لهذا المرجع النفيس حققت على أصوله
المخطوطة في دار الكتب المصرية وباريس ولندن وليدن وفيينا -
زودت بالشروح والتعليقات . والكتاب عبارة عن دائرة معارف
تقدم التاريخ ملخصاً من غير إخلال ، والأنساب المتشعبة المتفرقة
في إيجاز واستيعاب بمنع الخلط بين قبيلة وقبيلة ويعرف
بجملة من مشهورى الأدباء والعلماء ويسوق الطرف والملح والنوادر
على منهج محبب شائق وبالجملات كل ما يغنى الناس أن يعرفوه
عن أسلافهم من أخبار وما ينقل إليهم من حديث .

وقد ذيله الدكتور المحقق بفهارس دقيقة برجال السند
والأعلام والقبائل والأماكن والأيام والقوافي وأنصاف
والأمثال والآيات القرآنية والكتب .

الطبعة الثانية منقحة - ٨٢٠ صفحة . قطع كبير الثمن ٥

هذا المعارف من دار المعارف

0362529

